حنا

صبية في صف الفلسفة

335.4
H24dA

JA 7 '58
Jun 16 '58
MAR 6
MY 11
DE 10 '58
MY 21 '58
MY 25 '58
MAR 25 '58
DE 10 '58
JN 8 '59
JA 6 '57
MAR 10 '60
JA 28 '57
MAR
MY 10 '58
67

335.4
A24dA
C.1

الدكتور جورج حنا

ضجّة في صفّ الفلسفة...

عرض للصراع القائم بين الفلسفة الميتافيزية وبين المادية العلمية، وتحليل لمفهوم القيم الإنسانية والمجتمعية

الطبعة الثانية

1952

دار العلم للملايين
بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ، نيسان ، ١٩٥٢
الطبعة الثانية ، ايار ، ١٩٥٢

توطئـــة

•

الخلافُ الناشب بين الاشتراكيين التقدميين من جهـــة وبين القوميين السوريين الاجتماعيين من جهة ثانية ، مهما خلع عليه هؤلاء واولئك من الغطاء العقائدي والفلسفي ، فهو في حقيقتـه خلاف حزبي سياسي ، يحـاول كل من الفريقين تفسيره بدورس فلسفية وضعها معلما الحزبين ومستمدة من قواعد فلسفية كلاسيكية من نظريات فلاسفة التاريخ .

وعلى الرغم من الخلاف السياسي الحادّ بين الطرفين ، المغطى بغطاء عقائدي وفلسفي، وعلى الرغم من اجتهاد المتناظرين ومحاولتهم اخفاء الغاية الحزبية وراء الغطاء العقائدي ، او اظهار الغـــاية الحزبية بمظهر التابع للعقيدة الفلسفية ، وعـــلى الرغم من رجوع المتناظرين الى الاستعانة والاستنجاد بنظريات واجتهادات ارسطو وافلاطون وهيغـــل وروسو وفورباخ وكانت وغيرهم وغيرهم ، الذين قلما يخلو مقال من مقالات المتناظرين من ذكر اسمائهم وترديد اقوالهم ، وعلى الرغم من سعي كل من الفريقين لكسب السبق في مضمار البحث الفلسفي حتى ولو تخلل هذا البحث مشادّات لافلسفية ولا علمية ولا عقائدية ولا تتلاءم مع قواعد التأدب في الجدل، على الرغم من كل هذا يحرص الفريقان المتخاصمان والعدوان اللدودان،

كأنهما على اتفاق، على عدم الخروج في ابحاثهما عن النطاق الميتافيزيقي المضروب حول هذا الجزء من العالم، بحراسة وسهر «العالم الحرّ» عليه.

ولعلّ اتفاق الخصمين في هذه الناحية راجع الى تأثير العامل السياسي وتفوقه على العامل العقائدي، مما يضطرهما الى عدم التعرض لفرضيات العامل المذكور، وذلك لما قد يترتب على تعرضهما لها من شواغل بال بمقدور العامل السياسي ان يجرها عليهما او يجرهما إليها، بالنظر لمكانة ونفوذ هذا العامل في هذا الجزء من العالم.

والدليل على تأثير العامل السياسي على العامل العقائدي في المناظرة القائمة بين الخصمين، حرصهما الظاهر على تبرئتها من الفلسفة المادية العلمية، المفروض على هذه البلاد ان تنظر اليها نظرة عداء، وتبرؤهما عن طريق التهجم، من كل ما هو ماركسي المنشأ، ومحاولة بعض المتناظرين اتهام خصومهم بمشايعة الفلسفة المادية العلمية او تحبيذها ولو تحبيذاً جزئياً، كأنها وايم الحق تهمة، وما هي كذلك الا بنظر القوّامين على الفلسفة الميتافيزية وعلى السياسة التي تستغلها وتستغل الشعوب بواسطتها. والسياسة ما كانت يوماً إلا مفسدة الكل بحث علمي وعقائدي.

في المعركة الكلامية الناشبة بين الحزبين، قلما ورد مقال، هجومي او دفاعي، لم يُظهر فيه كاتبه، حتى ولو كان مدرحياً، تعلّقه بالمبادىء والفلسفات الروحية الغيبية المطلقة او نصف الغيبية. هكذا علّم ارسطو. هكذا قال هيغل. هكذا فسر الوجود ديكارت. هكذا حدد الحرية الاجتماعية روسو. هكذا وصف المعرفة كانت. هذا ما قاله سان سيمون وفوربيه واوين عن

الاشتراكية وهلم جرا . كل كاتب من الفئتين يمجد الفلاسفة الذين يرى في انتسابه اليهم ما يعطيه حجة على غيره . يرفع اقطاب الفلسفة التي يعتنقها الى القمة ، ويدحرج اقطاب الفلسفة التي يعتنقها خصمه الى الحضيض ، كأن الذي قاله هؤلاء الاعلام شرائع منزلة لا يحدها ادراك ولا تخضع لتطور العلم والمعرفة والزمن . فجاء نهج المتناظرين في ابحاثهم كنهج معلم الفلسفة الكلاسيكية الميتافيزية في لبنان الدكتور شارل مالك ، اذ خلعوا على اعلام الفلسفة الميتافيزية ، سواء أكانت اشتراكية او اجتماعية او اقتصادية ، ثوب العصمة الذي لم يحاول ارتداءه لا ارسطو ولا هيغل ولا كانت ولا سان سيمون ولا روسو ولا احد ممن ورد ذكرهم في مجموعة الابحاث المتناولة .

وفي هذه المعركة الكلامية نفسها ، قلما ورد مقال هجومي او دفاعي ، خلا من التهجم ، تصريحاً او تلميحاً ، على الفلسفة المادية العلمية الماركسية . بل لقد طالما قرأنا في هذه المقالات تفسيرات مختلقة ومختلفة ومبتذلة عن هذه الفلسفة ، يخلط فيها مدبجوها بين مفهوم الفلسفة المادية العلمي ، وبين مفهومها الاعتباطي الرخيص ، الذي يروّج له بحماسة من يخشون خطر الفلسفة المادية العلمية على فلسفتهم السياسية او على توجيههم السياسي ، المسند الى نظريات فلسفية هيولية ، والمستمد من تعاليم هي احياناً عقلانية واحياناً تلقائية ، واحياناً فرضية ودائماً كيفية ، تعاليم يفترضها المبشرون بها بديهية ومنزلة ، على الناس ان يأخذوها كما هي وكما وردت ، لا يطالها نقاش ولا تقبل جدلاً . ينعون على الماركسية ماديتها العلمية ، بينما

يستبيحون في فلسفاتهم المادية المبتذلة الرخيصة ، وإذا طالوا هذه بنقد فهم لا يخرجون بنقدهم عن النعومة والنصح والقيام بحملات تبشيرية، عن حقوق الانسان، والاخاء البشري، والحريات المقدسة، والعدل الاجتماعي ، والحقوق الطبيعية ، والرفق بالضعفاء ، وعدم استثمار الأنسان للانسان . يعظون بكل ذلك دون ان يكلفوا انفسهم عناء الاستقصاء العلمي عن مصدر حقوق الانسان الطبيعية وبالتالي الاجتماعية ، وعن اسباب عدم وجود العدل الاجتماعي ، وعن الوسائل التي يشرعها العلم ، لا التي يشرعها المتفقهون ، للقضاء على استثمار الانسان ، ولازالة الظلم والظالمين ، ولاحترام انسانية الانسان . هؤلاء الوعاظ يعظون بالخير بينما هم يسفهون من يدلهم على طريق الخير ، ويكفرون التعاليم التي ترسم لهم الطريق الى الخير . هؤلاء يصح ان يطلق عليهم اسم الفريسيين .

لم نكن نريد في بادىء الأمر الخوض في الابحاث الجارية بين الحزبين . ولم يكن في نيتنا ان نتخذ جانب الدفاع عن الفلسفة المادية العلمية التي تحالف الخصمان ، ولو بدون معاهدة حلفية ، على محاربتها . ولكن عندما رأينا تحالف الاخصام في المعركة العدائية، التي كان اول من حمل لواءها باسم لبنان الدكتور شارل مالك وزيرنا المفوض في وشنطن ومندوبنا الرسمي في هيئة الامم المتحدة، وعندما رأينا « العالم الحر » (!) يقف من ذلك موقف المشاهد المنشرح الصدر ، ويعمل ما في وسعه من اجل استمرارها، وينشط جاداً لاستغلالها ، ويسخر دعاياته لها ، هادفاً الى تخويف الناس من العدو الذي تحالف عليه اخصامه ، ولو كانوا اخصاماً فيما بينهم ،

وعندما رأينا التوجيه الرسمي في بلادنا يأخذ اتجاهاً معيناً ومفروضاً، لا مصلحة للبلاد من الارتماء في احضانه ارتماء اعمى ، قد لا يسلم الشعب من مخاطراته ومغامراته وما ينجم عنها من ويلات ومصائب ، رأينا في السكوت تقصيراً في أداء واجبنا الوطني نحو هذه البلاد التي نستظل علمها ونحو شعبنا الذي نخشى عليه مما يدبّره له الطامعون ، ومما يجره اليه جراً ذوو المقاصد والغايات . اننا لا نقصد من دفاعنا عن الفلسفة المادية العلمية فرضها على احد ، كما اننا لا نقصد من هذا الدفاع فرض التوجيه السياسي المستخلص منها . انما قصدنا من هذا البحث الا يدخل في اذهان الناس ما يعمل على ادخاله الى اذهانهم اولئك الذين يرغبون في الاستيلاء على الاذهان بغية نشر البلبلة والخوف والقلق ، لكي يتمكنوا بذلك من تنفيذ اغراضهم وإشباع مطامعهم . اننا نقصد الكشف عن الحقائق من وجهتها العلمية والموضوعية، فيستعين بها من يتخذ الحقيقة نبراساً له في اقواله واعماله ومسلكه وتوجيهاته . وسنتجنب ما امكن اقتحام النطاق السياسي في هذا البحث ، لا تخوفاً ولا تهرباً ولا تهيباً ، بل حرصاً منا على تجريده من اية غاية او صبغة سياسية ، ولكي نتقي الانزلاق الذي لم يسلم منه من استوحينا بحثنا من خطبهم واقوالهم وكتاباتهم ومجادلاتهم ، ولكي لا يطغى بعبع السياسة على هذا البحث ، كما طغى على ابحاثهم واخرجها في غالب الاحيان عن طابعها الموضوعي والعلمي والمنطقي، وأفسد الغاية التي كان يتوخاها منها طلاب الحقيقة . وها نحن نستعرض المسائل الاكثر تناولاً من المتهجمين على المادية العلمية التاريخية الديالكتيكية .

قيمة الانسان الشخصية والمجتمعية

القيم الانسانية والروحية والمناقبية

•

كثيراً ما يطلع علينا خفافيش الفلسفة في « العالم الحر » ببيانات اشبه بورقة النعي ، ينعون فيها قيمة الانسان الشخصية والمجتمعية والقيم الانسانية والروحية والمناقبية في العالم الماركسي ، ويذيعون بياناتهم هذه او يذيعها لهم اقطاب السياسة في «العالم الحر» متوخين منها تسفيه الماركسية واظهارها بمظهر الغول الجاثم على صدر البشرية لينقضّ عليها ويمحو حضارتها ، ومتوخين منها ايضاً تحصين الحضارة القائمة على فلسفتهم وتعاليمهم ضد خطر العلم والمعرفة عليهم . فيقولون في جملة ما يقولونه من سفسطات ان الفلسفة المادية العلمية تنزل الانسان منزلة الآلة الميكانيكية وتحط من قيمته كانسان وتجعل منه قطعة آلية في محرك هو المجتمع او الدولة ، وتجرده من القيم الروحية ، فتثور غيرتهم على هذه القيم وينادون بالويل والثبور ويستصرخون العالم — بالطبع عالمهم — لمجابهة هذا الخطر ورده عنه . فما هي قيمة هذه الادعاءات ، واين هو مصدرها ، ومن هم مذيعوها والنافخون في بوقها ؟

الانسان في نظر الفلسفة المادية العلمية هو الكائن الاعلى ، لم

يخلقه احد ، ولا يعلو عليه احد . هو يجلس في الذروة التي وصل اليها التطور البشري . هو ليس مخلوق الله ، بل الالوهية ذاتها من نتاج تفكيره الخلاق . والقيم الانسانية هي ايضاً من نتاج تفكير الانسان ومن إلهامه . والعقل البشري هو آخر ما وصل اليه التطور النوعي ، معمل للاختبار والتجديد والتطوير ، يبدع الفكرة ويصقلها ويهذبها بقدر ما يتاح له من وسائل الابداع والصقل والتهذيب ، التي هي بدورها من صنعه . الانسان ليس آلة في محرك ، ولكنه هو المحرك بالذات . الانسان بطبيعته خلاق ، لانه كائن عقلي ، وبطبيعته عامل خير ، وكل شر يأتيه هو نتيجة لتدخل العوامل التي تفرضها عليه الانظمة الاطلاقية لعرقلة تفكيره او للحد من قدرته على الخلق . المادية العلمية لا تؤمن بالتفوق السلالي ، ولا تؤمن بان البشر منهم الموهوبون فطرياً ومنهم غير الموهوبين عقلا وادراكاً كما تدّعي الفلسفات المضادة لها . هي تعتبر ان القدرة الخلاقة ميزة طبيعية في العقل البشري ، وان زيادتها في البعض ونقصانها في البعض الآخر يتوقفان على عوامل خارجة عن العوامل الطبيعية الاصيلة ، كالأمراض المتوارثة ابناً عن اب والامراض المكتسبة من الاوبئة والعلل التي تتحكم بجسم الانسان وعقله ، والامراض الاجتماعية المتفشية في المجتمعات والخلل الاقتصادي والمعيشي ، والفقر المادي والنفسي الموجه في البيئات ، والانظمة الموضوعة لتمكين الخلل بين البشر وتفريقهم شيعاً وطبقات . كل هذه العوامل ، الخارجة عن العوامل الطبيعية الاصيلة من شأنها الحد من القدرة الخلاقة في الانسان التي تعمل المادية العلمية على تحررها منها .

ذاتية الانسان المادية – بمفهوم المادية العلمي – لا تتناقض مع ذاتية المجتمع ، ومصلحته الذاتية تمشي يداً بيد مع مصلحته المجتمعية ومصلحة المجتمع نفسه . الانسان بطبيعته كائن اجتماعي ومجتمعي ، وقدرته على الخلق والابداع تقاس بعمله المجتمعي اكثر مما تقاس بعمله الفردي . مناقبية الانسان تأتي من مجتمعيته ولا تظهر الا فيها . المناقبية ليست فردية ولا تجريدية . مجتمعية الانسان هي الاساس ومناقبيته هي النتيجة . الاولى اصل والثانية فرع . فالقول بان الانسان كائن مناقبي (كمال جنبلاط في جريدة الانباء عدد ٥٠) لا يرتكز على الحقيقة العلمية ولا على الواقع الاجتماعي ، انما يرتكز على ميتافيزية روحانية بحتة . الاستاذ جنبلاط اراد ان يرفع الانسان من المجتمعية الى المناقبية لكي يفرقه عن الحيوان بدليل ما ورد في مقاله في نفس العدد : « لا مناقبية للفصائل الحيوانية ، للمجتمعات الحيوانية ، انما يتميز الانسان عن الحيوان بوصفه مناقبياً moral لا بوصفه اجتماعياً » . في هذا القول خلط الكاتب بين المجتمعات الحيوانية والمجموعات الحيوانية مع ان الفرق ظاهر بين المجتمعات والمجموعات . المجموعات لا تشكل مجتمعية . اذن لا مجتمعية في المجموعات الحيوانية ، وبالتالي لا مناقبية في عالم الحيوان .

هنا يأتي السؤال :

ما هي القيم الانسانية والروحية والمناقبية ؟

تضليل هو القول بان هذه القيم هي وحي من روح هيولية مستقلة الكينونة وخارجة عن ادراك العقل البشري . القيم الانسانية والمناقبية امور محسوسة وملموسة ، والامور المحسوسة والملموسة

مذكرة غير صحيحة

لا تصدر عن مصدر لا هو محسوس ولا ملموس . ومن الخطأ المقصود تسمية القيم الانسانية بالقيم الروحية. الذين يسمونها كذلك انما يقصدون اخراجها من نطاق معلوم خاضع للادراك والعلم والتطور الى نطاق مجهول خاضع لقوة موهومة غيبية وارادة فوق طبيعة البشر ولا تخضع لتطور ، يفسرها الهائمون بها احساناً يتصدق به غني على فقير ، ورغيفاً يطعمه متخم لجائع ، وشفقة يخدّر بها محروم ، وأجراً يسدّ رمق كادح ، وغيرة يبديها قوي على ضعيف ، ومحبة تقرّب بين انسان وانسان ، وخيراً يفعله فرد او جماعة اتماماً لوصية الله ، وشراً لايفعله الانسان للأنسان احتراماً للوصايا الالهية واتقاء لحكم شرائعها . اتكون هذه القيم وما هو على شاكلتها حقاً وفعلاً هي القيم الانسانية ؟ ثم هل صحيح أن القيم الانسانية في تسميتها قيماً روحية هي وحي من قدرة فيما وراء الطبيعة لاينظرها احد ولا يدركها احد اسمها الروح ؟ ام تكون القيم الانسانية قيماً مجتمعة تخلقها طبيعة الانسان المجتمعية وتظهر فيها ويغذيها مسلك الانسان المجتمعي ونشاطه فيه ، فتسمو هذه القيم كلما ارتفع الانسان في مراحله التطورية وكلما زادت معرفته وتهذب ادراكه كما تفيد الفلسفة المادية العلمية؟ لا بأس في تسمية القيم الانسانية بالقيم الروحية اذا اخذت كلمة « روحية » بمعناها المجازي وليس بمعناها اللفظي بقصد ارجاعها الى فعالية روح مستقلة هائمة في الهيولى وفي عالم الغيب . هنا تفترق الفلسفة المادية العلمية عن الفلسفة الميتافيزية لان الاولى مستمدة من العلم والمعرفة ، والثانية مستمدة من ميتافيزية الفكر و « الروح » دون ان تتقيد بالعلم والمعرفة .

الفلسفة بنت المعرفة وليس بالعكس . والفلسفة تتطور ، او يجب ان تتطور بتطور المعرفة . الفلسفة ليست مطلقاً رسمه احد ، او فكرة جالت بخاطر احد ثم احاطه بسياج لا يقتحم. والمعرفة بنت العلم ، والعلم وصل في هذا العصر الى درجة بدد فيها المعتقد الذي كان يقول به فلاسفة القرن الثامن عشر وهو أن المعرفة معرفتان ، معرفة علمية خاضعة للعلوم الطبيعية ، ومعرفة روحية خاضعة لعوامل فوق الطبيعة ولا يدركها علم الاشياء . العلم ينفي وجود هذه العوامل « فوق الطبيعية » ، والكائن الاعلى الذي هو الانسان ، يتحكم بالطبيعة . هكذا تعلّم الفلسفة المادية العلمية .

لا عصمة في الفلسفة ولاجمود، لانْ لا عصمة في العلم ولا جمود. والعلم فوق الفلسفة ، والفلسفة اذا خرجت عن نطاق العلم لا تستحق اسمها . واذا هي لم تتطور بتطور ذاك فقدت قيمتها ومعناها . الحقيقة بنت البحث والاختبار والتجربة ، يعني بنت العلم . والعلم في تطور مستمر . ما كان حقيقة في القرن العاشر والخامس عشر والثامن عشر ، ليس حقيقةً اليوم . الشمس في حقيقة اليوم لا تدور حول الارض بل الارض تدور حول الشمس على الرغم من حكم مجلس الكنيسة على غاليليو ، مبدّد حقيقة عام ١٦٣٣ ومكتشف حقيقة اليوم . الامراض الوبائية في حقيقة اليوم هي من فعل الجراثيم لا من فعل الارواح كما كانت حقيقة القرون الوسطى ، على الرغم من مكفّري باستور . اكتشاف البخار والكهرباء والذرة بدّد حقيقة الماضي وأقام محلها حقيقة الحاضر . هذا التطور في إظهار الحقيقة هو وليد التطور في العلم

والمعرفة ، فلماذا يريد بعض الناس ان يحكموا على الفلسفة بالجمود وهي بنت العلم والمعرفة ويجب ان تتطور بتطورهما ؟ هذا ما تتساءله ، بتهكم ، الفلسفة المادية العلمية .

●

لو اختار الدكتور شارل مالك مندوبنا في هيئة الامم ان يكتسب لنفسه لقب عالم بدل لقب فيلسوف وسياسي ، واللقب الاول اسمى واصلب وامتن وانفع ، لما وقف في هذه الهيئة الدولية ليلقي فيها اقوالاً ينزلها منزلة البديهيات التي لا تقبل جدلاً ولا نقاشاً . اسمعه يقول :

« هناك حقيقة تسمو على المادية العلمية وهي لا تتأثر بها . وهذه الحقيقة الخالدة هي حقيقة الفكر والروح ، وبوسع العقل ان يطمئن اليها ويسعى متواضعاً الى فهمها بدون صراع . »

« الانسان قابل الاتصال بالعزة الألهية المطلقة بفكره وقلبه وروحه ، وعلى قدر اتصاله بها واستجابته لارادتها تتوقف قيمته ويحلق في سموه . »

« الله موجود وهو الأب المحب للجميع وخالق الكون . »

« الانسان غير قابل للكمال لان في داخليته طبيعته جذوة معاكسة Perversity لا تشفى بغير مساعدة فوق طبيعية » (هذا احتقار لانسانية الانسان وهو مناقض لفلسفة هيغل وروسو المحترمين من الدكتور مالك .)

« ان التقاليد الآتية عن ديموقريطوس وفورباخ وماركس تذوب امام تقاليد افلاطون وارسطو وهيغل وهوايتهد الايجابية » .

(اذا كان الدكتور مالك يسمي تعاليم افلاطون وارسطو وهيغل وهوايتهد تقاليد فتلاميذ ديموقريطوس وفورباخ وماركس لا يقولون عن تعاليم هؤلاء انها تقاليد .)

« الانسان لم يُخلق من اجل المجتمع والدولة بل المجتمع والدولة وُجدا من اجل الانسان » (يجب التفريق بين المجتمع والدولة . الدولة وجدت من اجل الانسان والمجتمع وهي ليست الا شكلاً من اشكال المجتمع ، ولكن الانسان الذي خلق المجتمع لا تتبلور انسانيته إلا في المجتمع . واذن فعبارة « من اجل » لا محل لها بين الانسان والمجتمع . الانسان يكوّن المجتمع ، والمجتمع يكوّن قيم الانسان ومناقبيته .)

بمثل هذه البديهيات التي فرضها الدكتور شارل مالك، الناطق باسم الفلسفة الميتافيزية الروحانية ، من سوفوكليس ، الى القديس بولس ، الى آباء الكنيسة، الى القديس توما الاكويني ، الى فلاسفة القرن الثاني عشر ، يفسر حضرته حقوق الانسان وعلاقته بالمجتمع والقيم الانسانية والروحية ، ناعياً هذه القيم كلها في الفلسفة المادية العلمية لانها تعتبر ان الانسان هو الكائن الاعلى ، وانه متسلط على الطبيعة ، وليس في حاجة الى الالتجاء الى مساعدة من قدرة «فوق طبيعية » و « فوق بشرية » هيولية ومجهولة ، وابعد من ادراكه، قابلة الاتصال بالانسان . أليس من الغرابة بمكان ان تتهم الفلسفة التي لا تضع فوق قدرة الأنسان ايما قدرة بانها فلسفة لا تقيم للانسان قيمة بينما يقال عن الفلسفات التي تضع فوق الانسان قدرة روحانية هيولية لا يحدها ادراك ولا علم ولا معرفة ومفروض على الانسان

الخضوع لها ، بان للانسان في هذه الفلسفات قيمة اعلى من قيمته في الفلسفة المادية العلمية ؟ أهذا منطق ام ديالكتيك ، ام وحي منزل من علُ ، ام علم من علوم الاسرار لا يدرك كنهه الا من اصطفاه دون غيره علام الغيوب ؟ الجواب عند الميتافيزيين الروحانيين...

عندما يتشبث فلاسفة الروح بقدسية القيم الروحية وتفريقها عن القيم الانسانية ، وامكانية الاتصال بين الانسان والروح ، فلا مندوحة لهم ، تجاه هذا الاصرار والتفريق ، عن قصر قيمهم الروحية على الصلاة والعبادة والايمان بالله وبالآخرة والملكوت السماوي « حيث السعادة الابدية والحياة التي لا تفنى » على ان تترك للقيم الانسانية علاقات الانسان بالانسان وبالمجتمع . القيم الروحية للسماويات ، والقيم الانسانية للارضيات . الاولى للسعادة في الآخرة ، والثانية للسعادة الحاضرة . الاولى امل والثانية عمل . يبقى على البشر ان يختاروا بين هذه وتلك . واذا سلمنا الى فلاسفة الروح مهمة المحافظة بغيرة فائقة على القيم الروحية تلك ، فليتسع صدرهم لمن يعمل للمحافظة على القيم الانسانية ويفهمها بغير مفهومهم.

القيم الانسانية قيم مجتمعية . لو لم يكن مجتمع لما كانت قيم انسانية ولا مناقبية لان هذه القيم تحتاج الى محيط تتجلى فيه . ولو لم يكن الانسان كائناً مجتمعياً لما انطلقت انسانيته او مناقبيته من قراراته الشخصية لتتصل مع انسانية غيره ومناقبيته وتؤلف معها مركّباً انسانياً شاملاً للذات الانسانية والذات المجتمعية معاً . القيم الانسانية ليست قيماً تجريدية فردية مركزة في الانسان الفرد تقتصر على كونه لا يخطىء ولا يجرم ولا يخرج على

الانظمة المنزلة والحتمية . لو سلمنا – ولكننا لا نسلم – مع فلاسفة الروح بقيم روحية مستقلة ومحددة لتساهلنا معهم بتجريدية هذه القيم المستمدة من علاقة الذات الفردية بالروح الموحية ولكن القيم الانسانية التي تدخل ضمنها القيم الروحية ، بمعنى الروحية المجازي ، هي مركب مجتمعي ولا تظهر مزاياها وحسناتها وفضائلها الا في المجتمع وفي علاقة الانسان باعضاء المجتمع . ومن العسير علينا نحن ان ندرك ما يدعي ادراكه فلاسفة الروح وحدهم ان القيم الروحية هي التي تخلق القيم الانسانية وتهذبها وتصقلها باستمدادها المعونة من الروح السابحة في عالم الهيولى والغيب المجهول . فالقيم الانسانية تشمل العلاقات المادية بين البشر ويتوقف مصيرها على اكثر من العلاقات الميتافيزية . القيم الانسانية هي شبع ، وعمل ، وسعادة ، وانتاج ، ورفاه ، وفن ، وحب ، وابداع ، في هذه الحياة قبل ان تكون شبعاً ورفاهاً وسعادة وابداعاً في الآخرة. اطعام الجائع ومؤاساة المحروم ومساعدة المحتاج والعطف على اليتيم ، ليست قيماً انسانية كما يدعي فلاسفة الروح. القيم الانسانية هي ان اعمل ولا افسح مجالاً لوجود الجائع والمحروم والمحتاج واليتيم المرهون بعطفي. الاحسان ليس قيمة انسانية. القيمة الانسانية هي ان لا يكون هناك من يحتاج الى احساني . القيم الانسانية اذن مادية قبل ان تكون روحية ، وأرضية قبل ان تكون سماوية. القيم الانسانية لا تقضي فقط بان لا اكذب ولا اسرق ولا احتال على غيري ، انما هي تقضي بان لا يمهد لي طريق الكذب والسرقة والاحتيال والجريمة ، والا يكون الى جانبي ما يضطرني الى الكذب عليه وسرقته

وقتله والحسد منه والحقد عليه . الى هذه الغاية وفي هـذا المضمار تعمل وتعلّم الفلسفة المادية العلمية التي يحاول الميتافيزيون والروحانيون تجريدها من القيم الانسانية والروحية والمناقبية . وفي هذا الميدان تتصارع المادية العلمية مع الفلسفة الميتافيزية وكلّ فلسفة اخرى . فالمادية العلمية لا تؤمن بفلسفة خارجة عن نطاق العلمية، وهي تسخر من الفلاسفة ، وتأبى ان يخلع على اعلامها هذا اللقب ، اذا كانت الفلسفة ترتكز على المجهول ، على غير المحسوس ، على الوحي ، على الروح والروحانية ، على كل شيء ما عدا العلم ، لانهـــا هي لا ترتكز الا على العلم والعلم وحده . لا ماركس ولا انكلز ارتضيا بان يعدّا من فئة الفلاسفة بل تركا هذا اللقب للذين فضلوا الاتصال بالروح وهاموا بالغيب ووعظوا بالفرضيات والوهميات، وهما اطلقا تعاليمها من العلم وحصرا تفكيرهما في نطاقه . انهما عالمان كما كان دارون قاهر الطبيعة عالماً وكفاهما بذلك فخراً . وعندما يتصارع العلم مع الفلسفة فلا مفر من انتصار العلم وهزيمة الفلسفة. وكذلك متى تصارع العلماء مع الفلاسفة لا مفر من انتصار العلماء ، اذ ليس بمقدور الاقزام ان يحاربوا الجبابرة .

●

على ان بعض الميتافيزيين عندما رأوا افلاس الروحانية وتناقضها مع الحقائق العلمية ، عمدوا الى خلق فلسفة جديدة ، لا يموت فيها الذئب ولا يفنى الغنم ،اطلقوا عليها اسم الفلسفة المدرجية،هذا المزيج الكيمي الغريب ، الذي ، في رأي طابخيه ، يمزج قضية يراد اثباتها (These) المادة،مع قضية معاكسة يراد اثباتها ايضاً (Autithese)

الروح ، ليؤلفوا من هـذا المزيج مركباً جديـداً هو المدرحية (Synthese) كما يفعل من يمزج الزيت مع الماء ليحصل على مركّب يصلح للشرب اكثر من الماء وللاكل اكثر من الزيت، فيخسر الماء والزيت معاً وهو يظن انه ربح الاثنين ، اذ ان الماء والزيت مادتان غير قابلتين للدمج في مركب متحد ومنسجم . هكذا فعل قبلهم عقلاء الروحانية ، وما زالوا ، عندما اطلق داروين بحوثه البيولوجية في تسلسل النوع النباتي والحيواني والانساني . فعندما اثبت العلم بالبرهان ان نظرية داروين لم تعد نظرية بـل اصبحت حقيقة ثابتة رجعوا عن تكفيرهم لها ولداروين وراحوا يفسرونهـا تفسيرات مختلفـة ، اكثرها اعتباطية ، تهدف الى الاقرار بعلميـة النظرية الداروينية دون ان يكون اقرارهم هـذا نافياً لنظريتهم الروحانية في الخلق المستقل . ولا نريد ان نضيـع الوقت في شرح هذه التفسيرات العقيمة والمتلاطمة لـكي لا نشغل افكار القارىء بما لا يفيده . كان الاولى بهؤلاء الطباخـين ان يدركوا ان مزج مادتين غير متوافقتين لا يدمجهما مـع بعض ولا يجعل منهما مادة متحدة ومنسجمة ابداً .

ان باعث الفلسفة المدرحية الذي لم يكن ينقصه العلم، في ادراكه قيمة المادة العلمية ، وفي ادراكه ما للروحانية من تأثير موروث في حياة البشر ، اراد ان يأتي بتسوية بين الاثنتين، قد تصلح للتوفيق بينهما ، فكان في عمله هذا نصف ميتافيزي . غير ان تلاميذه انتقلوا بنصف ميتافيزيته الى ميتافيزية كاملة : «ان المدرحية نظرية ميتافيزية لها مقولاتها الخاصة ، وهي تقول بان اساس الوجود ناتج عن اتحاد

العنصرين المادة والروح» (من خطاب القاه احدهم في شرح المدرحية).
وفيما نلاحظ ان المعلم يعنى بالنفس الدماغ (نشوء الامم ص ٥٠) وهو ما تقول به المادية العلمية، وفيما هو يقول ايضاً «الثقافة النفسية جارت الثقافة المادية **وقامت عليها** اذ الحياة العقلية لا يمكن ان تأخذ مجراها الا حيث لقيت لها الاسباب والمقوّمات ولذلك نجد التطور الثقافي بجميع مظاهره يرتقي ويسبق غيره حيث اسباب الحياة اوفر وارقى مما سواه.» اذا بالتلميذ نفسه الذي شرح المدرحية يقول: «الروح كائن مستقل» خارجاً بذلك عما عناه المعلم كما رأينا ومعتبراً في قوله «الروح كائن مستقل» ان الروح والنفس شيئان مختلفان. على اننا لم نستطع ان نعلم ما اذا كان المعلم نفسه غيّر رأيه المادي فيما بعد عندما قال بعد عودته من الاغتراب: «ان اساس الارتقاء الانساني هو اساس مادي روحي، مدرحي، وان الانسانية المتفوقة هي التي تدرك هذا الاساس وتشيد مستقبلها عليه. ليس المكابرون بالفلسفة المادية بمستغنين عن الروح وفلسفتها ولا المكابرون بالفلسفة الروحية بمستغنين عن المادة وفلسفتها». بهذا القول يخرج المعلم نفسه عن نظريته المادية في النفس مجارياً تلميذه، كأنما هو يعود فينكر ماهية النفس الدماغية ومقدرتها على خلق الروحية بدون ان تكون هذه من عمل «الروح الكائن المستقل». اننا لانعرف لهذه البلبلة الا سبباً واحداً وهو دخول العامل السياسي في الموضوع. والسياسة كانت منذ القدم وما تزال عاملاً من عوامل البلبلة في التفكير.
لم يشأ باعث الفلسفة المدرحية الدخول في الابحاث العلمية

والفلسفية التي ينطوي عليها السؤال : « من اين جاءت الحياة » (نشوء الامم ص ٢٢) على اننا نستنتج مما جاء في الصفحة التالية انه يقر بثبوتية اتصال الانواع الحيوانية والنباتية ، وينفي مبدأ الخلق المستقل ، ويقر بثبوتية العلم الكيمي في وحدة العناصر التي تؤلف ما هو عضوي وما هو غير عضوي ، ويطري الفيلسوف السوري ابا العلاء المعري في قوله :

« والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد »

ان باعث الفلسفة المدرحية اراد ان يختصر البحث العلمي ويبني فلسفته على النتيجة فقط من ان الانسان كائن من الكائنات الحية دون ان يتعرض لمبعث الحياة خوفاً من ان يأتي بحثه نافياً لكينونة الروح المستقلة ومثبتاً ان « الروحية » هي غير « الروح » وان الروحية ليست الا مظهراً من مظاهر الحياة وليست مظهراً من كائن مستقل اسمه الروح او اشتقاقاً منها ، وان الروحية بالنتيجة هي مجرد قيم ومناقب في حياة الانسان وجدت فيه بفاعلية التطور ورفعت حياته عن حياة الحيوان الخالية من الروحية وقيمها ومناقبيتها ، اذ لو كانت الروح كائنا مستقلا فلماذا حرمت الحيوان من فضائلهـــا بل لماذا حرمت الأنسان البدائي ، وتحرم الانسان في المجتمعات غير المتطورة مدنياً منها ايضا ؟

ليت تلاميذ «سعادة» اختصروا كما اختصر معلمهم البحث العلمي والفلسفي عن الحياة والروح والمادة لكي لا يقعوا في متناقضات علمية ، مثل هذه التي نوردها على لسان شراح المدرحية :

« الروح والمادة صنوان لا يفترقان كصفحتي ورقة بيضاء ، لا

وجود للواحدة دون الاخرى ، فلا وجود للمادة دون الروح ولا للروح دون المادة . »

« المدرحية تفكير ينسجم مع الحقائق العلمية (كذا) ولا يخالف الظواهر الروحية بالاختبار . »

« الصراع في النفس الانسانية يبقى ضمن حدود الروح . »

يُستدل من هذا ان المدرحية لم تعد نصف ميتافيزية بل ميتافيزية كاملة ! اذ جعلت من شيء مجهول فوق طبيعيّ لا يدركه العقل ، وشيء طبيعي محسوس وملموس ويدركه العقل ، صنوين لا يفترقان وبذلك طلقت علميتها .

لقد كان «سعادة» زعيم حركة سياسية وضع قواعدها ومقوماتها ، واسسها على نظرية جغرافية أرضية ، واحاط هـذه الجغرافية في البدء بسياج جغرافي ما لبث ان وسّعه فيما بعد ، واستخلص من هذه الجغرافية قومية سورية مستقلة ذات وحدة حياتية واحـدة ومختلفة عن غيرها من الوحدات الحياتية آخذاً بنظرية منتشيني : « الامة هي مجتمع طبيعي من الناس ذو وحدة ارضية وجغرافية اصلية ووحدة عادات ولغة خاضع للاتحاد في الحياة والوجدان الاجتماعي » ، ومستحسناً نظرية درخيم : « الامة جماعة انسانية تريد لأسباب اثنية وتاريخية فقط ان تحيا في ظل قوانين معينة وان تشكل دولة سواء صغيرة ام كبيرة » . فيقول «سعادة» ان هذا الآن مبدأ مقرر عند الامم المتمدنة انه متى ثبتت هذه الارادة ، الموحدة باستمرار ، اي الارادة التي تكلم عنها درخيم ، حق لها ان تعتبر الاساس الثابت الوحيد للدول ، ومع ان سعادة ينكر عنصر السلالة

في تكوين الامم ، فهو لا يغيظه رأي منتشيني في العرق ورأي ايوانوف في السلالة ، ورأى درخيم في الاثنية ، ويشيد بالكتاب الذين تكلموا عن السلالة السورية ولكنه على عكس اولئك يستخرجها من مزيج من الكنعانيين الفينيقيين والاراميين والحيثيين والعرب تجمعت فيها حسنات كل فئة من هذه الفئات .

لم يُقصد من وضع هذا الكتاب البحث في القومية السورية كما يعرّفها « سعادة » وحزبه، ولا في القومية اللبنانية كما يعرفها حزب الكتائب اللبنانية ، ولا بالقومية العربية كما يعرفها العروبيون ، ولا باللاقومية التي يُتهم بها الاستاذ جنبلاط . فالقومية هي شكل من اشكال المجتمع تصهره في بوتقة واحدة ذات مصالح عامة واحدة وثقافة واحدة وعادات واحدة او متشابهة . على ان القومية يجب ان لاتكون عنصراً يبعد الواحدة منها عن القوميات الاخرى او يثير بغضاء الواحدة وتعصبها تجاه غيرها من القوميات فيحصل من ذلك الحروب بين الدول بسبب عنتها وادعائها التفوق على غيرها . ولا نظن ان قومية الحزب السوري الاجتماعي خالية من ذلك . فزعيم الحزب القومي السوري الذي ينكر عنصر السلالة في تكوين الامم ، ويفسر القومية بالوحدة الحياتية والثقافية والاجتماعية والمصلحية ، لا يستغني عن القول «ان الاجتماع البشري يقسم الى شكلين رئيسيين : الاجتماع البدائي (primitive) والاجتماع الراقي ، والشكل الاول من خصائص السلالات الاولية والشعوب المنحطة ، والشكل الثاني هو من خصائص السلالات التي أنشأت المدنيات واخذت بها . ومن هذه القسمة التصنيفية التي تقودنا اليها

الملاحظة الدراسية نرى ان النوع البشري يظهر من الوجهة الاجتماعية بمظهرين متباينين نوعاً ومتميزين دائماً ، هما مظهر المجتمع المتوحش او البدوي ومظهر المجتمع العمراني او المتمدن » . افلا يعني هذا ان الوجود البشري وجودان لا وجود واحد ؟ ثم ما دام سعاده يقول ، ان القوة كما ظهر في الحرب العظمى هي افعل عامل في احقاق الحق واظهار الباطل » و « ان الامم التي لها حق في الحياة (كأنه يوجد امم لا حق لها في الحياة !) هي التي تستطيع إثبات هذا الحق » و « ان الامم التي تتفوق بسلاحها وتكون لها الحكمة الضرورية تقدر ان تفرض السلام الذي تقرره » . ألا يجوز لنا ان نستنتج ايضاً من هذه الاقوال ان القومية التي دعا اليها زعيم الحزب القومي السوري لا تخلو من عامل التعصب والادعاء بالتفوق وان عليها باعتبارها متفوقة ان تثبت وجودها وتفوقها على غيرها بالقوة التي يشيد بها سعاده ويقول انها « افعل عامل في إحقاق الحق وإظهار الباطل » و « ان الامم التي تتفوق بسلاحها تقدر – بالطبع بقوة السلاح – ان تفرض السلام الذي تقرره ؟ ألم تكن هذه مبادىء النازية الهتلرية بالامس ومبادىء الولايات المتحدة اليوم ؟ ان السلام الذي تقرره قوة السلاح ليس سلاماً ، والسلام الذي يحرسه السلاح يحمل في قرارته كل شرور البشرية وويلاتها . لقد صدق ميخائيل نعيمه ، فيما قاله في محاضرة ألقاها في كلية المقاصد : « انه اقرب الى المعقول ان يكون ابليس حارساً للجنة من ان يكون السلاح حارساً للسلام ..! » .

قلنا ان القومية شكل من اشكال المجتمع تصهره في بوتقة

واحدة ذات مصالح عامة واحدة وثقافة واحدة وعادات واحدة او متشابهة، وان القومية اذا كانت تحمل في داخليتها عنصر البغض والحسد والادعاء تصبح خطراً على المجتمع الذي يدين بها وعلى سائر المجتمعات . والعالم على ما نعلم سائر الى القوميات المجتمعية التمدنية وليس الى القوميات المتعصبة المحاربة والا كان العالم بحالة تطور الى الوراء . حتى الفلسفة المادية الماركسية لا تتنكر للقومية بهذا المفهوم . فالفلسفة الماركسية ، وهي بطبيعتها تطورية ومراحلية، لا تحارب الفكرة القومية، كما يستدل من واقعها الراهن في البلدان التي اعتمدتها اساساً لانظمتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بل تعتبرها مرحلة من مراحل التطور الى ان يبلغ المجتمع الانساني درجة من الكمال تخطو به من المرحلة القومية الى المرحلة اللاقومية ، مرحلة الانترناسيونية .

•

ليس المقصود من هذا الشرح محاسبة الحزب القومي السوري الاجتماعي او الحزب التقدمي الاشتراكي او اي حزب آخر في حزبيته السياسية. فلكل من هذه الاحزاب ان ينهج النهج الذي يوافق ميوله السياسية ويعمل في الطريق التي توصله الى غرضه . ان قيام وتعدد الاحزاب السياسية ، ليس فقط لايضير بلادنا ، بل هو دليل وعي ، هذا اذا كانت الاحزاب احزاباً عقائدية ، اذا اختلفت في العقيدة ، لا تختلف في الهدف متى كان هذا الهدف تقدّم البلاد وتطورها ورقيها السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، ومتى كان هذا الهدف القضاء على الاستعمار والاستثمار والاقطاعية والطائفية

والمحسوبية والرشوة وما شاكل هذه من الشرور التي تتخبط فيها البلاد . ولكن ان يدعي احد الاحزاب احتكار القومية والثاني احتكار المناقبية والثالث احتكار الاشتراكية المثلى والرابع احتكار الوطنية ، ويبني هذا الحزب او ذاك سياسته على مختلقات او مستعارات فلسفية ، مختلفة ومتعددة ، وتتفق هذه كلها ولو ضمنياً ، وبدافع العامل السياسي وتحت تأثيره، على التهجم على الفلسفة المادية العلمية ، وتسفيهها وتكفيرها ، هذه الفلسفة التي يؤيدها العلم وترتكز عليه ، وهي لم تعد بحاجة الى التزكية من فلاسفة الميتافيزية او النصف ميتافيزية ، فهذا ما لا يدركه فهمنا الا اذا كانت هذه الاحزاب ترمي الى غاية واحدة وهي تسخير العلم والفلسفة للواقع السياسي في هذا البلد ، هذا الواقع الذي ليس بوسع اي مكابر ان يدافع عنه . وقد سبق فلاسفة هؤلاء الاحزاب الدكتور شارل مالك عندما تطوع لتهديم المادية العلمية بميتافيزيته التي اذا اختلفت شكلاً عن ميتافيزية هذه الاحزاب المتخاصمة ، فهي على كل حال ميتافيزية فلسفية من فرضيات رجال مرّوا في التاريخ ، اذا اعترف لهم بالعبقرية فمن غير الجائز الاعتراف لهم بالعصمة ، او بكونهم مصدر العلم الأوحد وخاتمة الرسل والفلاسفة.

ان العلم في هذا العصر وصل الى درجة من التطور والابداع لم يعد معها بحاجة الى فلاسفة حاجته الى علماء ، سواء أكانت الفلسفة من مبتكراتهم ام مأخوذة عن اقطابها القدماء ، اذ ان كل فلسفة لا تقوم على العلم ولا تنطبق على الحقيقة العلمية ، وبالاولى اذا كانت تتناقض مع هذه الحقيقة ، يجب ان تنكفىء ويسدل عليها الستار ،

حتى ولو كانت صادرة عن ارسطو وافلاطون وهيغل والقديس توما الاكويني وسبنسر وروسو وسواهم . ان إقرار العالم بفضل هؤلاء لا يقضي عليه بالخضوع المطلق لتفكيرهم وحتمياتهم مهما تحدث العالم بعبقريتهم ، والا كنا كمن يحكم على العقل البشري بالجمود وعدم التطور .

ولو درس تلاميذ المدرسة الميتافيزية والمدرسة النصف ميتافيزية تعاليم المدرسة المادية العلمية ، وتعمقوا بها وادركوا حقيقتها واخذوا باقوال معلميها واقطابها ، ولو تطلعوا بعين مجردة ومنزهة عن غايات السياسة وألاعيبها واضاليلها ، وليس بعين محمرّة حقداً على مجتمعها ، لما استسلموا لحقدهم وغاياتهم اللاإنسانية ، ولما تجردوا عن المنطق في حملاتهم عليها ، ولما كانوا يحاولون تفسير مادّيتها العلمية بتفهومهم الضيق الرخيص . ان المادية العلمية ما قالت يوماً ، ولا تقول ابداً ، بان الانسان وجد فقط ليأكل ويلبس ويتحرك ، ولكن الذي قالته وتقوله دائماً ، ان الانسان اذا لم يأكل ولم يلبس ولم يشرب ولم يتعلم لا يكون انساناً ، ولا يستطيع ان يكوّن مجتمعاً ويخلق مناقبية وقيماً . فالمناقبية والقيم من صنع الانسان الذي لم ينهك جسمه وبالتالي عقله الجوع ، ولم يهدم قواه العري ، ولم يحل دون تفكيره الحرمان . المادية العلمية لم تنكر ولا تنكر ابداً ان « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » ، ولكنها تنكر ان بمقدور الانسان ان يحيا ويخلق ويبدع بدون خبز ، اذ ان الخبز هو المادة الاولية لحياة الانسان . هكذا قال وعلّم ماركس وانكلز خالقا الفلسفة المادية (إقرأ ماركس في ردوده على فورباخ ، وانكلز في تأبينه لماركس) . ان دعاة المادية الرخيصة وحلفاءهم مبشري الفلسفة الميتافيزية ، في

محاولتهم تفسير المادية العلمية بمفهومهم الغيبي الضيق ، شأنهم شأن المضللين الذين يرددون من الآية « ولا تقربوا الصلاة وانتم سكارى» نصفها الاول ويسكتون عن نصفها الثاني بقصد الاساءة الى معنى الآية وافساد الغاية منها . انهم مضللون .

هذا ما يحدونا الى القول ان من ينظر الى المناقبية نظرة تجريدية ويقول « بان المثالية ترتكز على قيم ثابتة بالنسبة الى الانسان الفرد ودائمة بالنسبة الى المجتمع لا تتغير ولا تتبدل فيتخذها الفرد مقياساً للتعرف وللاعمال وللبطولة » ومن يقول عن المادية العلمية إنها « مسخ عن فلسفة هيغل » (الاشتراكي التقدمي سليم صادق في جريدة الانباء) وان من يقول بمجتمعية المناقبية ولا يلبث ان ينوعها الى مجتمعية قومية تعصبية يجب ان تفرض وجودها وتفوقها بالقوة السلاحية ، فيبني احد معتنقي هذه المجتمعية المدرجية على ذلك قوله « انه لا يوجد انسانية واحدة بل انسانيات» ومن يقول بان «الانسان غير قابل للكمال لان في داخليته جذوة معاكسة لا تشفى بغير مساعدة فوق طبيعية » (شارل مالك) ان هؤلاء كلهم سواء في الخطأ والضلال من الوجهة العلمية . ليس بمقدور الفلسفة ان تنقض العلم كما انه ليس بمقدور الغرور الفلسفي ان يستبق تطور العلم ، هذا الغرور الذي حدا باحد المدرجيين الى القول حرفياً « واذا كنا لا نريد الخوض في بحث الجواب على سؤال من اين تأتي الحياة فلأننا **نعرف** (?) ان العلم سيعطي مرتكزات للجواب تخرج العالم حتماً من تفسير الكون بالفلسفة المادية البحتة ومن تفسيره بالفلسفة الروحية البحتة ليؤكد ان الحياة مدرجية ، حركة فاعلة تعبر عن ذاتها باشكال ترقى بالتطور » . وهذا هو غرور النبوة وتحدٍّ للعلم واستباق لحركة التطور .

بين الديالكتيك الهيغلي الميتافيزي
والديالكتيك الماركسي العلمي

•

ما دامت الروح خالدة ومستقلة بنظر الفلسفة الروحانية ، وقد تكون كذلك بنظر الفلسفة الميتافيزية كلها ، فلا شك ان روح هيغل مطمئنة ومغتبطة للتأليه الذي يلقاه هيغل وروحه عند الميتافيزيين. فهؤلاء لايتركون سانحة تمرّ الا ويحشرون اسم هيغل في مناظراتهم ومجادلاتهم الفلسفية ، لكي يستمدوا المعونة والمناعة لبحوثهم. المحافظون والمتحفظون منهم يعيّرون الفلسفة الماركسية وديالكتيكها بكونهما اقتباساً عن فلسفة هيغل وديالكتيكه، وهم يعرفون اذا كان عندهم معرفة ، ان ديالكتيك هيغل هو بدوره اقتباس عن ديالكتيك ارسطو وهيرقليطوس وان لم يسمّ هذا بالديالكتيك في عصورهما . وليس هناك اي عيب في الاقتباس ، لاسيما متى كان الاقتباس نقطة انطلاق لما هو اعلى وافضل . اما المتعنتون المتحجرون من هؤلاء ، الذين يصفون المادية العلمية وديالكتيكها ، بانهما مسخ عن فلسفة وديالكتيك هيغل ، وهم ينشدون الصواب في الميتافيزية، ويحسبون ان العلم ضلال وتضليل

فهؤلاء لايضير المادية العلمية تجنيهم عليها ، ولا هم يستحقون ان يعنى باقوالهم ورصف كلماتهم .

ان الذين يزعمون ان الديالكتيك من مبتكرات هيغل وابداعه، وهذا خطأ ، لايسعهم ان ينكروا أن ماركس مشى شوطاً ابعد بحيث اخرج الديالكتيك من عالم الغيبية المطلقة الى عالم الحقيقة العلمية والتاريخية ، ناهجاً بذلك على سنة التطور البيولوجي الطبيعي الذي هو مصدر الصراع النوعي الحياتي . ولو قيّض لهيغل ان يعيش الى ما بعد عام ١٨٣١ الذي مات فيه ، لما بلغ به التعصب لنظريته مبلغاً يحدو به الى الوقوف موقف العداء من المادية العلمية. فهيغل ، وهو صاحب نظرية التدرج المستمر والصراع الداخلي ، لم يكن ليسعه لو عاش بعد استقرار نظرية داروين في الاصطفاء النوعي الطبيعي والنشوء والارتقاء وبقاء الانسب ، الا ان يماشي ، وفقاً لنظريته الآنفة الذكر ، تطور ديالكتيكيته الميتافيزية الى ديالكتيكية علمية . ليته عاش لكي لا نرى ميتافيزيي هذا العصر يتعصبون لفلسفته ونظرياته ويتعبرونها خاتمة الفلسفات ، وكل ما اتى بعدها ليس الا مسخاً عنها .

ولكن المتحجرين من فلاسفة الميتافيزية في هذا العصر لايريدون ان يمشوا الخطوة التي كان هيغل جديراً بان يمشيها لو طالت حياته . ذلك لانهم يخشون على « الروح » ، الكائن المستقل بنظرهم، من ان يتسلط عليها الانسان ، الكائن الاعلى بنظر الفلسفة المادية العلمية ، فيخسرون اذ ذاك السلاح الذي يتسلحون به ويفرضون بواسطته قواعد الحرية والمناقبية والقيم الروحية. هؤلاء المتحجرون لا حرج

على البشرية منهم ، بل يصح ان تستغني البشرية عنهم .

ان الديالكتيكية الهيغلية تنطلق من الفكرة وتدرجها التلقائي الشعوري . كل فكرة تتدرج من الفكرة الاولى ، فتسمو عنها ، لتعطي بدورها محلها لفكرة احسن واسمى . وهكذا الى ان تصل الفكرة الى اوجها المثالي الذي تتجلى فيه روحية الانسان المثالي ، هذا الانسان الذي وصفه هيغل بانه هو الله المتجلية فيه الروح المثالية . فالفلسفة الهيغلية ، في نفيها وجودية الله وإحلالها الانسان المثالي محله ، لم تخرج عن النطاق الميتافيزي ، وبقيت ديالكتيكيتها على وسعها ضمن حدود هذا النطاق ، نطاق تدرج الفكرة التلقائي التي تنبثق عنها الحقيقة المطلقة ، دون ان يكون للتطور المادي العلمي ، حتى المادة الدماغية المنبثق عنها العقل البشري ، يدٌ بهذا التدرج . وهذا معناه ان الوجود الحقيقي هو انعكاس عن الفكرة المثالية المتجلية في الانسان المثالي .

هذا ما دعا فورباخ الى الخروج على معلمه هيغل ، عندما طلع بنظريته المادية القائلة بان الوجود الحقيقي ليس انعكاساً للفكرة ، بل على العكس ان الفكرة هي انعكاس عن الوجود الحقيقي الطبيعي ، فليست الروحية المتجلية في انسان هيغل المثالي ، الذي نعته فورباخ بانه نموذج مشابه للاله الذي يقول به الروحانيون نحته هيغل من خياله وميتافيزيته وعمد الى تثبيت الوهيته بديالكتيكيته المثالية ، ليست هذه الروحية مصدر الفكرة ، انما مصدرها هو الانسان الحقيقي من لحم ودم ، وان هذا الانسان الحقيقي هو خالق الفكرة وخالق الله نفسه . فالدين والقيم الروحية والانسانية

ليست الا انعكاسات عن علاقة الانسان بالأنسان في هذا الوجود .

من هذه النظرية الفورباخية انبثقت نظرية ماركس المادية العلمية ، متخطية نظرية فورباخ ، ومنتقلة بها الى مدى اوسع من مداه الديني والروحي ، لكي تشمل عدا عن علاقات الانسان الروحية ، علاقاته الاخرى كلها ، مستنداً بذلك على تقدم العلوم الطبيعية وعلى تطور الاحداث التاريخية والنمو الاقتصادي وتأثيره في علاقات الانسان وتطوير انظمته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، هذه العلاقات التي لم يولها فورباخ اهتمامه الذي حصره بالعلاقات الدينية والروحية . هنا اطلت المرحلة الحاسمة التي ادت الى انهزام الديالكتيكية الهيغلية المثالية وقيام الديالكتيكية المادية العلمية التاريخية ، ديالكتيكية ماركس وانكلز .

الى الذين يعيبون على الماركسية ثوريتها

●

الميتافيزيون حانقون ومحتدمون غيظاً على الماركسية . هم يعيبون عليها ، وما اكثر ما يعيبون ، ثوريتها ، لانهم محافظون ودعاة استقرار ، وبدون هذا الاستقرار هم لا يرتاحون ولا يطمئنون على فلسفتهم وعلى الانظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية المرهونة به . واقطاب السياسة والاجتماع والاقتصاد في « العالم الحر » لا يبتغون اكثر من ذلك . وهؤلاء في رغبتهم في دوام هذا الاستقرار ، يبتدعون مطلق حيلة ، ويعتنقون مطلق فلسفة ، ويبذلون كل ما في وسعهم من جهود ، ويسرفون بالف وعد ووعد . صناديق المال المخزون والمسروق من الشعوب مفتوحة لدعاياتهم وتهويشهم على الماركسية وثوريتها . وبوليس هؤلاء الاقطاب رهن باشارة منهم للضرب على من يناقض تعاليمهم او بالاحرى تعلياتهم . والتدجيل اصبح قسماً من فلسفتهم .

الميتافيزيون هائمون بالاستقرار وغيورون عليه . ذلك يعود الى تخوفهم على الاوضاع القائمة في عالمهم ، وحرمان اسياد هذا العالم من مغانم يضمنها لهم هذا الاستقرار .

الميتافيزيون منهم المقتنعون بميتافيزيتهم ، ومنهم النيو ميتافيزيون

والمسخرون والمأجورون لاسيادها وتجارها ومستغليها . الاولون يتناولون الوحي من عالم الغيب، ثم يوحون به للاخرين، اتماماً للخطة المرسومة ، وتنفيذاً للمؤامرة التي يحيكها على الفلسفة المادية العلمية ومعتنقيها معتنقو الفلسفة الميتافيزية والاستقراريون المستغلون لروحانيتها وغيبها . وقد يتحمس هؤلاء بين آن وآخر ، ويحملون على الشواذ والمعاصي ، ويتنادون من اجل ايقافها عند حد ، ولكنهم في حماستهم يحرصون دائماً وابداً على الا يمسّ استقرارهم بكبير سوء. هم ينشدون اصلاح الانسان واصلاح المجتمع واصلاح الانظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، والترفيه عن الشعوب المحرومة ، ومساعدة الشعوب المتأخرة الخ الخ . ولكنهم ينشدون اصلاحاً مستكيناً متواضعاً عن طريق الوعظ والارشاد والاقناع والاحسان ، متجاهلين ان القوى الواقفة بوجه اصلاحاتهم اشد منهم بأساً ، واغنى منهم موارد ، واوسع منهم حيلة ، اذا ظاهرتهم احياناً ، فلكي تخفف من حماستهم ، واذا سلمت لهم ببعض الشيء، فلكي تلهيهم عن معظم الاشياء ، واذا مشت معهم مرحلة من الطريق ، فلكي تسد عليهم آخر الطريق . وهم بين حرصهم على قدسية الاستقرار ، وبين حرص القوى التي تراودهم او تناهضهم او تطغى عليهم ، على مغانمها من الاستقرار، يدورون ويدورون ضمن حلقة مفرغة .

لسنا بحاجة الى اي نوع من الفلسفة لابطال حجج الميتافيزيين في الاستقرار والدعوة اليه والهيام به. ان الواقع الاجتماعي وحده من شأنه ان يقنع من يريد ان يقتنع. اما الذين لا يريدون ان يقتنعوا ، فلا

شأن لنا معهم ، ولا نحن بحاجة الى اقتناعهم .

اذا كنا لا نريد التوسع في البحث الاجتماعي البعيد ، لكي لا نضيع القاريء في التجوال بالفكر الى الاقطار الاسيوية والافريقية والاميركية والاوروبية كلها ، فلأنّ لدينا مما نشاهده في اقطارنا العربية وما يجاورها ما يكفي ويزيد ، ولأن هذا الجزء من العالم الذي يهمنا اكثر من سواه لكونه لنا ولكوننا منه ، مشمول بعطف دعاة الاستقرار ، الوطنيين منهم وغير الوطنيين ، ممن تدفعهم شفقتهم عليه الى التطوع لمساعدته وتقديم النصح اليه . فالاستقراريون من الفئتين لا يدعون فرصة تمرّ دون ان يشيدوا بالاستقرار ، ولا تفوتهم فائتة دون ان يظهروا هيامهم به وخوفهم من تعكير صفو جوّه . الاستقراريون يرون في كل حركة تحرّرية في مطلق بلدٍ عربي ، خطراً عليه وعلى السلام العالمي ، ويرون في كل انتفاضة شعبية مساساً بالاوضاع الراهنة والهادئة التي لا يستغنون عنها . الاستقراريون مطمئنون للاستقرار في البلدان العربية لأنه ينيل الاستقراريين الوطنيين رغائبهم ، ولا يعكر على الاستقراريين أمزجتهم بل على العكس يخدم مصالحهم . الاستقراريون لا يجدون بأساً في ملك يحتكر خيرات بلاده ، ولا في حاكم يبدّد اموال شعبه على نفسه وعلى عائلته ، ولا في اقطاعي يملك الارض ويستعبد فلاحيها ، ولا في طائفية تبذر بذور البغضاء ، ولا في محتكر لا يعرف الشبع ، ولا في شعب يشقى من البؤس والفقر والمرض والجهل ، ولا في حكومات ديموقراطية اسمياً ورجعية فعلياً ، ولا في فسادٍ في الحكم مصدره شهوة المال والجاه ، وقوامه المحسوبية

والرشوة واحتقار القانون من الذين يضعون القانون ، ولا في شرائع ما سُنّ مثلها في القرون الوسطى ، ولا في استعمار فكريّ عدا عن الاستعمار الاقتصادي والسياسي ، ولا في شعوب محرومة من الحريات . الاستقراريون يغمضون اعينهم عن كل ذلك، لان هوس الاستقرار مستحوذ عليهم ، ولأنهم بدونه يفقدون النعم التي هم غارقون فيها ، يوزعون منها ما يريدون وعلى من يريدون . وهل يزعم الاستقراريون ان الواقع الأجتماعي الراهن في الاقطار العربية هو ضرورة لا يستغنى عنها ، وان السلام الاقليمي والعالمي مرهون ببقائه كما هو ؟

هذا ما نتساءله عندما نسمع المسؤولين عن هذه الاقطار المنكوبة بهم ، يتحدثون عن منافع الاستقرار ، وعندما يجرّدون ما لديهم من القوى لانزال الضربات بكل من يكفر به ، إن عملاً وإن قولاً ، وعندما نرى الدول الغربية عنا والطامعة بنا ، توليه معظم اهتمامها ، وتجعله حجر الزاوية في معاملتها معنا ، بحجة الامن الجماعي والسلام العالمي .

ولسنا نتجنى على الفلسفة الميتافيزية اذا انحينا عليها بالقسط الاكبر من المسؤولية ، ان لم نقل كل المسؤولية ، عن هذه المآثم. فالميتافيزية التي تنادي بالصبر على الشدة ، والقناعة في هذه الدنيا من اجل كسب السعادة في الآخرة ، وبالطاعة العمياء لاولي الأمر ، والتي تعظ الفقراء بان لا يحسدوا الاغنياء بل ان يستجدوا منهم العطف والعمل، والتي تبشر بالقيم الروحية الغيبية اكثر مما تبشر بالقيم الانسانية والمعيشية المحسوسة ، الفلسفة الميتافيزية هذه ، لا نكون

مغالين اذا قلنا انها من الرجعية ولدت وعلى الرجعية تقوم . وليس عجيباً ما نراه من نشاط رسلها ومبشريها ودعاتها في هذا الجزء من العالم . انا لا اظن ان عدد المبشرين والمرشدين والوعاظ يكثر في بلدٍ من بلدان الدنيا كثرته عندنا . ولا اظن ان عالماً من عوالم الدنيا تسحره الوعود والارشادات والمواعظ كما تسحر العالم العربي والشرقي . ومما لا شك فيه ان عنصر الجهل هو السبب الأكبر، وان سياسة التجهيل الموجّهة تزيد الطين بلة .

ان الميتافيزيين الذين يعيبون على الفلسفة المادية العلمية ثوريتها اشبه بالذين يعيبون على الشمس حرارتها وعلى النهار نوره . فكما ان الشمس لا تكون شمساً بدون حرارة ، وكما ان النهار لا يكون نهاراً بدون نور ، هكذا المادية العلمية التاريخية لا تكون علمية إذا انحرفت عن علمية التطور الصراعي الدروينى ، الذي لم يعد بمقدور الميتافيزيين انكاره، ولا تكون تاريخية اذا تنكرت للحقيقة التاريخية واحداث التاريخ .

الانفجارات البركانية ظاهرة طبيعية ولازمة للأرض ، والانفجارات الاجتماعية والحياتية لازمة للحياة لزومَ الانفجارات البركانية للارض . الاولى جزء من الكيان الطبيعي لايستغنى عنه، والثانية جزء من الكيان الحياتي لا يستغنى عنه ايضاً . من يعيب الثانية يجب ان يعيب الاولى . اما ان يعيب الواحدة ولا يعيب الاخرى ، باعتبار أن الكيان الطبيعي علم والكيان الحياتي فلسفة ، وباعتبار الفلسفة خارجة عن نطاق العلم ، فهذا لا ادري بماذا اسميه. الميتافيزيون في ادعاءاتهم الفلسفية ، وفي غيرتهم على الاستقرار ،

ينسبون للثورية تعكير صفو الحياة، ويتهمونها بانها خطر على السلامة العامة ، وبانها دعوة الى اضرام الحروب . تأدباً لا اقول عنهم الا انهم مخطئون او هازلون . الثورة ليست حرباً ، انما هي انفجار يحصل في مجتمع ، منشأه الضغط الحاصل فيه، وآخرة الضغط الانفجار. الحروب مردّها الى الطمع وحب السيطرة والاستئثار والاستثمار، ومرد الثورة الى الرغبة في التخلص من الطمع والسيطرة والاستئثار والاستعمار .

الثورة والحرب شيئان مختلفان اختلافَ الليل والنهار. الطلاب في الصفوف الابتدائية يعرفون ذلك . وان عجبتُ لشيء فلما جاء على لسان الدكتور شارل مالك في خطاب القاه في الامم المتحدة ورد فيه :

« ان الثورة في بلد ما وحرب الطبقات في امة ما ليسا اقل وحشية من الحرب بين الدول بل اكثر ، وان اعادة السلام بعد الثورة في بلد واحد اصعب كثيراً من اعادته بعد حرب تقع بين دول مختلفة . »

وانطلاقاً من هذه البديهية الزاعمة بان الثورة هي الحرب بمعناها الكامل المعروف، وانها اكثر وحشية واخطر على السلام من الحرب بين الدول، يجيز الدكتور مالك للدول التي لا تعكر صفو استقرارها ثورة داخلية ، ان تهبّ بوجه اية امة تثور من اجل تحررها ، وتقضي على ثورتها وتخمد انفجارها . ويخيل الينا من هذا ان نظرية الدكتور مالك هذه تتفق مع نظرية الدول الاوروبية ، عندما تحالفت هذه في حرب للقضاء على الثورة الفرنسية واعادة الملكية

البوربونية ، اكراماً لعيون الاستقرار الدولي في ذلك الحين . ولا نظن ان الدكتور مالك في قرارة نفسه ، ينكر او بمقدوره ان ينكر ، فضل الثورة الفرنسية على تطور الحضارة ، وعلى التطور الانساني كله، كما اننا لا نظن انه ينكر او بمقدوره ان ينكر فضل الشعب الفرنسي وتضحياته في سبيل الحرية وحقوق الانسان .

وما هي الثورة ، وما معناها ، وما هو مرماها ؟

في الطبيعة ، كل بركان يتفجر او كل زلزال يقلب وجه الارض من حال الى حال هو ثورة .

في العلم ، كل اكتشاف او اختراع يقلب القواعد المعروفة رأساً على عقب هو ثورة . اكتشاف كوبرنيك وغاليليو لدوران الارض ، واكتشاف باستور للطفيلية الجرثومية هما ثورة .

في الدين ، كل انقلاب كالانقلاب المسيحي والانقلاب الاسلامي والانقلاب اللوثري هو ثورة .

في السياسة والاجتماع ، كل حركة راديكالية لازالة ظلم الحكام ورفع الطغيان وتبديل الاوضاع وتغيير الأسس المتهرئة هو ثورة .

كل من ذكرنا كانوا ثواراً ومتمردين ، وقد اصابهم من استقراريي ايامهم ما يصيب ثوار ومتمردي هذا العصر من استقراريه .

الدكتور مالك في مفاضلته بين الطريقة المسيحية للثورة وبين الطريقة الماركسية ، لم يكن موفقاً . فثورات المسيح ومحمد ولوثيروس وغاليليو وباستور لم تسلم من تألب العدوان عليها . واذا كان المسيح سلك في ثورته مسلك اللاعنف والاكتفاء بالارشاد والوعظ ، فاعطى نظرية الدكتور مالك ونظريات

الميتافيزيين مستنداً لهـــا ، فذلك يعود الى كون الثورة المسيحية عقيدةً وايماناً وملكوتاً سماوياً فقط ، وليست ثورة حكم وشريعة ونظم سياسية واجتماعية واقتصادية يسري مفعولها على السلطات الحاكمة في ذلك الزمن ، بل على العكس تركت لهـــذه السلطات صلاحياتها كلها : « اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » . وفضلاً عن ذلك فات الدكتور مالك ان القرن العشرين العلمي غـــير القرن الاول نصف البدائي ، وان للاجيال والتطور تأثيرهما في المفاهيم والمقاييس ومجابهة الاحداث . فاللاعنف في الثورة المسيحية الايمانية لا يصح اتخاذه حجة على وجوب التقيد بطريقتها في الثورات الاجتماعية والسياسية . الثورة لا يغير من جوهرها العنف واللاعنف . هـي انتفاضة على الاستقرار والاوضاع الراهنة . امـــا كيف تكون هذه وكيف كانت تلك ، ولماذا لا تكون هـذه كما كانت تلك ، فهذا عائد للفرق بين هذه وتلك ، ولمبررات هذه ومبررات تلك ، ولأهداف هذه واهداف تلك ، وللعوامل التي تثير هذه والعوامل التي اثارت تلك، ولا يخفى على الدكتور مالك ان الاحكام تتغير بتغير الازمان . بقي على الميتافيزيين الذين يرون في الثورات عيباً وخطراً على معشوقهم الاستقرار ، ان يقولوا للطبيعة الا تثور ، وللبراكين الا تتفجر ، وان يسجلوا في السجل الاسود اسمـــاء المتمردين ، كالمسيح ومحمد ولوثيروس وغاليليو وباستور ، كما فعل أسلافهم الاقدمون ، وان يحذفوا من قائمة الشرف والبطولة اسماء محرري الشعب الفرنسي وابطال الثورات التحريرية في العالم . انهم اذا فعلوا ذلك كانوا منطقيين على الاقل مع انفسهم وامناء لتعاليم

ميتافيزيتهم .

ثورة الامم للتحرر من مستعبديها ، وثورة الشعوب للتخلص من خرافاتها وشعوذاتها ، وثورة العلم على الاوهام ، خطر على السلامة العامة... بالسخافة هذه الاقوال وبالضلالها ! السياسة الغاشمة الميكيافيلية وحدها تقول هذا القول . ومن نكد الدنيا ان تجد مكيافيلية السياسة في الميتافيزية سنداً لها ، وتجد بين الميتافيزيين مسخّرين لغاياتها ...

حقيقة الاشتراكية

•

الاشتراكية في هذا العصر هي قِبلة الشعوب وشغل الدول الشاغل . الشعوب تنشدها لأنها ترى فيها النظام الافضل للحياة السعيدة والرفاهية الشاملة . والدول الممثلة بحكوماتها تتغنى بها إجابةً لرغبة الشعوب ، او امتثالا لهذه الرغبة المتزايدة. وفي هذا التفاعل ، الذي يبلغ احياناً حدّ الصراع ، بين شعوب تحس وتطمح ، وبين حكومات تحكم وتهيمن وتفسر ، تتجلى الفوضى باجلى مظاهرها ، وتظهر البلبلة في صفوف الاشتراكيين .

ليست الاشتراكية مولوداً جديداً ولا من مواليد هذا العصر. الاشتراكية وجدت مع وجود الانسان، حين كان البشر يتعايشون ويتقاسمون موارد الارض . على انه عندما اخذت الموارد بالازدياد بدأ التقاسم يتحول شيئاً فشيئاً الى نظام « اللاتساوي » تبعاً لزيادة الموارد في ارضٍ ما ونقصانها في ارضٍ ثانية ، وتبعاً ايضاً لغريزة حب البقاء في الانسان ، فهو في استجابته لهذه الغريزة ، وفي نزعته الطبيعية للمحافظة على حياته ، كان يفتش عمّا يقتات به ويضمن له اسباب بقائه . فاذا اجدبت الارض التي يعيش عليها هاجر الى ارض غيرها اكثر خصباً . فكان طبيعياً والحالة هذه ان يتبدل

نظام التعايش من نظام « التساوي » الى نظام « اللاتساوي » ، نتيجة للتزاحم على نتاج الارض الخصبة ، ونتيجة لتغلب انسان على انسان ، او قبيلة على قبيلة ، وانتزاع الغالب قوت المغلوب . هذا بالطبع ما دعا الى قيام مجتمعية جديدة تختلف عن المجتمعية البدائية الصرفة ، توضع لها انظمة وقوانين ، وتخلق فيها طبقات ، ويقوم فيها رؤساء قبائل ، يوزعون على الناس حظوظهم من انتاج الارض ، ويقضون بينهم على سنة الغاب ، للقوي اكثر من حظ الضعيف ، وللغالب نصيبه ونصيب المغلوب ، او على الاقل القسم الاكبر من نصيبه . وهكذا نرى أن مجتمعية العصور الاولى كانت مستوحاة من نتاج الارض وموارده وكيفية توزيعها ، وحصة كل انسان منها . وبكلمة اقرب الى الفهم ، كانت مجتمعية الناس ، منذ ان وجد الانسان ، مرهونة بشبع الانسان وجوعه ، وبافادته من موارد الارض او بحرمانه منها . وكانت علاقات الناس بين بعضهم رهناً بالانتاج الارضي وطرق توزيعه وتصريفه واستخدامه ، بل كانت هذه العلاقات تتكيف بطرق التوزيع والتصريف والاستخدام . من هذا يتبين ان العلاقات البشرية التي كانت الاساس الاول للمجتمعية هي علاقات انتاجية في الاصل ، وضعت لها اصول واحكام وانظمة الغاية منها توزيع الافادة من الانتاج حسب قواعد مستوحاة من عقلية العصر .

على انه عندما اخذ الانتاج بالازدياد ، بدأت العلاقات بين الناس تتحول من شكل الى شكل ، واصبح ضرورياً ان تُسن شرائع لتسوية هذه العلاقات وتنميتها ، وان توضع احكام جديدة لها ،

كما انه اصبح طبيعياً ان تتكيف مناقبية المجتمعيات المختلفة طبقاً لتغير شكل العلاقات ، وكان لا بد من وضع قواعد ومقاييس للمناقبية في كل شكل من اشكال المجتمعية ، تتبدل وتتطور بتبدل وتطور المجتمعيات المختلفة ، ومدى تقدمها الانتاجي وطرق توزيعه وتصريفه واستخدامه . من هنا بدأت المناقبية تتكيف وتتبلور ، وكان الحكم فيها وعليها بيد الحكماء من القبيلة ومن شيوخها ومتزعميها واصحاب القوة والسلطة فيهـــا . هؤلاء كانوا يستوحون حكمتهم من الاختبار ، او يستلهمونها من الارواح ، ثم يسكبونها في قواعد ، يسري مفعولها على افراد القبيلة لاعتقادهم بحكمة زعمائهم ، ولأيمانهم بقوة الارواح وخوفهم من نقمتها .

من هذا يستدل ان علاقات الناس الاجتماعية والفكريـــة والروحية، كانت دائماً ملازمة لعلاقاتهم الانتاجية ومتصلة بها اتصالاً غير منفصل ، ولا قابل الانفصال . هذه الصلة بين علاقات الناس الاجتماعية والفكرية والروحية وبين علاقاتهم الانتاجية ، هي نقطة الخلاف بين الفلسفة الميتافيزية والفلسفة المادية التاريخية. الاولى تقول بان الفكر المطلق هو الذي صنع التاريخ ورعى تطور العلاقات البشرية ، والثانية تقول بان العلاقات الانتاجية، كانت هي الاولى في التاريخ ، وكانت هي الدافع لتطور العلاقات الاجتماعيـــة والفكرية والسياسية ايضاً . هنا يتجلى التصادم بين الفلسفتين : الفلسفة الميتافيزية تضع العلاقات الاجتماعية والروحية في الصف الاول والعلاقات الانتاجية في الصف الثاني ، بينما الفلسفة المـــادية التاريخية تضع العلاقات الانتاجية في الصف الاول والعلاقـــات

الاجتماعية والفكرية والروحية في الصف الثاني ، لان هذه مسببة عن تلك وتابعة لها. الخلاف إذن ليس على كون الصلة بين العلاقتين موجودة اوغير موجودة، بل على ايها الاولى وايها الثانية، وايها الاصل وايها النتيجة ، ايها الاساس وايها البناء .

وعلى الرغم من عدم وجود خلاف بين الفلسفتين، على قيام الصلة بين العلاقتين جنباً الى جنب لا يسع الباحث المدقق ان يقلل من اهمية خلافهما على اية من العلاقتين لها صفة الاولوية ، لان هذه الاولوية تحدد نقطة الانطلاق للتقدم الانساني . أتكون الاولوية للعلاقات الاجتماعية والفكرية حسب النظرية الميتافيزية ، ام تكون للعلاقات الانتاجية ، كما تقول المادية العلمية وكما يثبت التاريخ ؟ لا نظن انه يتعذر على الباحث المدقق جلاء الحقيقة التي يدله عليها الواقع التاريخي .

لنمش الآن مع قطار التاريخ ، ونستعرض مراحله ، ونصل معه الى العصر الذي زاد فيه انتاج الارض ، وازدادت العناية بها ، وتكاثرت محصولاتها ، وتوزعت فيه ملكياتها على الناس تبعاً لانظمة العصر . قبيلة تتغلب على قبيلة ، فتنتزع ملكية ارضها وتضمها لملكيتها ، وقبيلة تهجر ارضها بسبب جدبها ، فتستولي على الارض المهجورة جارتها ، ورئيس قبيلة ينتزع من افراد قبيلته، ارضهم ، او هم يهبونها له ، مقابل حمايته لهم من الاعداء ، او مقابل رفع جور الملوك عنهم ، فتنشأ من ذلك الاقطاعية وينشأ معها المجتمع الاقطاعي . الاقطاعيّ يحتاج الى من يحرث له الارض ، والناس يحرثونها له لكسب العيش . الاقطاعي يسهر على حمايتهم ،

وهم قانعون بانهم عائشون وآمنون على حياتهم . إذا طلبهم الملك للحرب ، فالاقطاعي وحده يقرر مصير افراد اقطاعيته . ان له عليهم حق التبعية وفضل الحماية . وعيهم الاجتماعي لا يتعدى حدود القناعة والطاعة لاقطاعييهم . بذلك كانت تبشرهم التعاليم الدينية التي كثر عدد مرسليها ومبشريها في ذلك العصر اكثر من اي عصر آخر . على انه كان على الاقطاعيين ان يبقوا يقظين ، كي لا يخرج وعي الشعب عن حدوده ، ولو اضطرهم هذا لتقنين منتوجاتهم من الارض ، خشية ان تكون وفرة الانتاج دافعاً ليقظة الشعب وفتح عيونه على حالته المعيشية وزيادة تطلباته منهم .

واستمر قطار التاريخ في مسيره ، حتى وصل الى مرحلة ظهرت فيها بوادر التقدم العلمي ، فاخترعت الآلة ، وطوّع البخار خضمّ البحار ، واكتشفت الطاقة الكهربائية ، ونشأت الصناعات ، وانفتحت سوق التجارة ، وكثر التبادل بين الناس في البلاد الواحدة وفي البلدان المتباعدة ، وارتفع صولجان المال بدل صولجان الاقطاع ، وبدأ زحف الناس الى المدن ، حيث وجدوا ضمانة لمعيشتهم اكثر من ضمانة الارض ، وبدأ النظام الاقطاعي يفقد مكانته ، والمجتمعية الاقطاعية تذوب شيئاً فشيئاً . عندئذ استيقظ الاقطاعيون ، ولكن يقظتهم جاءت بعد فوات الاوان ، فوجدوا مملكتهم تضيع ، ولم ينفعهم ندمهم على ما فات ، فهم لم يحسنوا سياسة مملكتهم ، ونزلوا على احكام القدر ، الذي كانوا يؤمنون به ، وقبلوا الهزيمة امام جبروت المال ، ولقد طالما استنجدوا بقاهرهم ، ليحتفظوا ببقية من مكانتهم . ولكن سلطان المال ادهى

من ان يؤخذ بالخدعة . لقد انتزع الصولجان من اصحابه ، وهو لا يعاود في المحافظة عليه .

وهكذا انتقل قطار التاريخ من مرحلة الاقطاعية ومجتمعيتها الى مرحلة البورجوازية الرأسمالية ، وانشأ مجتمعية جديدة اكثر تقدماً ووعياً ودهاء من المجتمعية المغلوبة .

في هذه المرحلة العجائبية الجديدة ، التي هزمت المرحلة الاقطاعية بتقدمها العلمي والصناعي والانتاجي المادي الصرف ، لم يغب عن بال سادة البورجوازية الرأسمالية ان المادية التي بواسطتها هزمت البورجوازية الاقطاعية ، قد تكون عاملا لهزيمتها هي ، مادامت هذه تنقر على وتر يحرك مشاعر الناس ، ويستجيب لحاجاتهم ومصالحهم ، وما دامت هذه المادية ، التي ساعدوا على اعلاء شأنها ، منبثقة من العلم الذي يزداد انتشاره يوماً عن يوم ، ومؤيدة من مجرى الاحداث التاريخية . ولذلك عندما سيطرت الفلسفة الميتافيزية على الفكر في القرن الثامن عشر ، وازدهرت مدرستها ، وتوّج معلموها على عرش الفكر والروح ، عمد اقطاب البورجوازية الى استغلالها ، وساعدوا على نشر تعاليمها ، وساهموا باموالهم في فتح مدارسها ، واشتركوا مع رجال السلطات الروحية والزمنية في اضطهاد اصحاب الافكار الحرة . فمن جهة كانوا يساعدون على كشف المخبأ من العلوم الطبيعية ، بغية الحصول على كنوز الطبيعة ، لتحسين صناعاتهم وتسيير تجاراتهم وتضخيم ثرواتهم ، ومن جهة ثانية كانوا يساعدون على نشر الافكار الميتافيزية ، ليخدّروا بها عقول العامة ، التي هم باشد الحاجة الى ايديها لا الى عقولها وتفكيرها .

فاحتلت من جراء ذلك الفلسفة الميتافيزية عرش الفكر ، إما على يد فلاسفة روحانيين يبشّرون بالقناعة والاستسلام لارادة فوق طبيعية وغير منظورة ، لا يحدها علم ، ولا تصل اليها معرفة ، ولا يدركها العقل البشري ، وبقيم روحية تهبط على الناس من وراء المجهول ، واما على يد فلاسفة ، هم ايضاً ميتافيزيون ، ولكنهم عقلانيون وديالكتيكيون ، ينطلق ديالكتيكهم من المطلق الغائب ، ثم يرجع اليه ، ويجعل منه سواء اكان الهاً غير منظور ، ام فكرة غير محددة ، المصدر الوحيد للتفاعل الانساني والمهيمن الأعلى على هذا التفاعل ، وما ينبثق عنه من قيم ومقاييس مناقبية ومجتمعية . فليس صعباً على الدهاء البورجوازي ، في حنكته وثرائه وفي نزعته الى المغامرة ، ان يخضع الميتافيزية لارادته ، وهو الذي اخضع من قبلها الاقطاعية الارضية ، واخضع ايضاً اصحاب العروش الملكية ، بواسطة اموالها ، التي لا يستغني الملوك عنها والتي كانوا يستدينونها من كبار الرأسماليين ليدعموا بها سلطانهم ، ويحاربوا اعداءهم ، ويشيدوا قصورهم ويصرفوا على بلاطاتهم ومحظياتهم . وهكذا بقيت البورجوازية الرأسمالية تمشي من نصر الى نصر ، فاصبحت بمجتمعيتها المجتمعية السائدة ، ومناقبيتها المناقبية المثلى . وفي هذه المرحلة عظم شأن الفلسفة الميتافيزية ، كما علا شأن اعلامها وحاملي لوائها .

ولكن قطار التاريخ لم يقف عند حد هذه المرحلة ، بل بقي مستمراً في مسيره ، وسط عالم سادت فيه البورجوازية الرأسمالية ، وسيطر فيه المال ، وازدهر العلم ، وانتشرت الصناعة والتجارة ، وازدادت البحبوحة . فالبورجوازية لم تترك باباً مغلقاً

الا وفتحته ، لتعبر منه الى حيث تجد ما تصبو اليه ، وتحقق غايتها منه . ولكنها مع كل ذلك ، كانت تحمل معها عدواً لم يكن لها بد من مرافقته لها لشدة حاجتها اليه. هذا العدو هو العمال والطبقة العاملة.

لم يكن للبورجوازية الرأسمالية غنى عن اليد العاملة . فالمصانع لا تنتج بدون عمال ، والآلة لا تتحرك بدون ايد ، والسفن لا تمخر البحار بدون بحارين ، والمعادن لا تستخرج من جوف الارض بدون حفارين ونباشين وفعلة ، والآلة لا تصير آلة بدون ايد تشعل النار ، وتذيب الحديد ، وتجمع القطع ، والبورجوازية الرأسمالية لا تعيش ولا تزدهر كما عاشت وازدهرت ، ما لم تستخدم شغيلة وعمالاً يمكنونها من العيش والازدهار . وفيما كان الازدهار البورجوازي يمشي قدماً وصعداً ، وفيما كان التقدم العلمي والصناعي والانتاجي يخطو خطواته الجبارة ، وفيما كانت التجارة تنمو وتتسع ، والثروات تتضخم وتتجمع في صناديق سادتها ، كان العالم يشهد ولادة طبقة جديدة ، هي الطبقة العمالية . وبينما كان الانتاج يتحول من انتاج فردي الى انتاج جماعي واسع ، بفضل التزاحم على استثماره ، وبينما كانت الشركات الانتاجية والاستثمارية تحل محل الاعمال الفردية ، بفضل التزاحم ايضاً ، مما ساعد على خنق الاعمال الفردية ، كان التكتل العمالي يتبلور شيئاً فشيئاً ، وينضم اليه البورجوازيون الفرادى الذين قضت عليهم الرأسمالية الجماعية ، وحرمتهم الشركات الاستثمارية من صناعاتهم وتجاراتهم الفردية ، ورمتهم في احضان الطبقة العمالية ، فزادوها قوة ، على الرغم من سليقتهم البورجوازية . والجدير بالملاحظة ، انه في هذه الاثناء ، كانت الطبقة العمالية تلاقي عطفاً

وتفهماً وتأييداً من المثقفين واصحاب الافكار الحرة، اذ وجد هؤلاء في قيامها ونجاحها ما يتلاءم مع تفكيرهم ومع مصلحتهم ايضاً. هذا ما حدا بماركس وانكلز ولينين الى الاستنتاج، كما يحدو بكل متفهم للتاريخ، ان البورجوازية الرأسمالية تحمل في قرارتها جرثومة موتها.

واستمر قطار التاريخ في مسيره، ووصل الى عالم جديد، يعج بالعمال، الذين اصبحوا يشكلون طبقة مستقلة ناشئة، ولدتها البورجوازية، ورغبت في ان تبقيها لها، وفي خدمتها، وتحت امرتها، فلا تترعرع، ولا تتحرر، ولا تستقل، ولا تخلق، ولا تكوّن مجتمعاً. وفات البورجوازية انه من السخف محاولة وقف قطار التاريخ، والوقوف في وجه تيار التطور، ومعاندة سنة الطبيعة. هذه المرحلة الجديدة التي يقرع بابها القطار، ولن يتوقف عندها، هذه المرحلة هي مرحلة الاشتراكية والمجتمع الاشتراكي.

عندما أصبح لليد العاملة وزنها وشأنها في تسيير الحركة الصناعية، وعندما ادرك جماهير العمال، ان الازدهار البورجوازي الرأسمالي ما كان لولا اليد العاملة، وعندما استيقظ العمال فرأوا ان السعة التي كان لهم الفضل الاكبر بايجادها بعيدة عنهم، ويحتكر نعمها اصحاب الرساميل فقط، وان احتكار هذه السعة من قبل هؤلاء وتقنينها عليهم، او بالاحرى على القلة الضئيلة منهم، والمحظوظة من الاسياد، لسبب من الاسباب، ليس بعيداً عن الغاية التي يتوخاها الاسياد، انفتحت عيونهم على امرهم، ودبّ فيهم وعي ما كان من قبل، وتنادوا للسعي مجتمعين، للحصول على مايستحقون فكان ذلك ايذاناً بقيام الطبقة العمالية كطبقة مجتمعية مستقلة.

كان ليقظة العمال اثرها البالغ . فوقف منهـا فلول الرجعيين والاقطاعيين موقف العناد والمقـاومة ، بينما وقف منها المجتمع البرجوازي ، موقف المساومة والملاينة . فالبورجوازيون اكثر دهاءً من الاقطاعيين ، وهم يسايرون التطور اكثر من اولئك . ان مصلحتهم تقضي بهذه المسايرة .

من هنا بدأت فكرة الاشتراكية تتجه اتجاهات مختلفة واحياناً متباينة . فكانت الاشتراكية الانسانية ، على الطريقة المسيحية ، مستمدة تعاليمها من فلسفة المسيح الروحانية ، التي تـأمر بالمحبة ، ومساعدة الفقير ، وتكفير الغني ، وكانت الاشتراكية الاقتصادية الانسانية ، التي حمـل لواءها « سان سيمون » و « فوريه » في في فرنسا و « اوين » في انكلترة وكانت الاشتراكية الديموقراطية التي حمل لواءها في المانيا « لاسال » و « ليبنخت » ، ولم يلبثا حتى خرجا عليها ، عندما تغلغل فيها اشتراكيون انتهازيون ، فظاهرها السياسي الداهية بسمارك نفسه ، في وقت من الاوقـات ، بقصد استغلالها سياسياً . وكانت الاشتراكية «الفابية» الانكليزية ، التي كان من ابرز مبشريها سيدني ويب وبرنارد شو ، واخـيراً كانت الاشتراكية المادية العلمية التاريخية ، اشتراكية ماركس وانكلز ولينين . كل هذه الاشكال من الاشتراكية ، كانت دليلاً على اهمية الحركة العمالية ، ووعي العمال المتزايد . كل هـذه الاشكال من الاشتراكية ، كانت تهدف الى هدف واحـد ، وترمي الى غرض واحد ، هو تغيير المجتمع البشري ، عن طريق الاصلاح الهادىء والمتواضع ، او عن طريق الاصلاح الانقلابي الثوري . وباستثناء

الاشتراكية المادية العلمية ، كان العامل الانساني الميتافيزي هو الدافع الأهم ، بل العامل الاوحد ، لانطلاق الفكرة الاشتراكية . ومع ان كل الاقطاب الذين حملوا لواء الاشتراكية ، كانوا يهدفون الى غاية واحدة، وهي قلب المجتمع البشري،من مجتمع بورجوازي الى مجتمع اشتراكي ، إلا ان الطريق التي اختارها كل منهم ، كانت تختلف عن الطريق التي اختارها سواه . ذلك لان كل فئة من هؤلاء ، كانت تدين بفلسفة تختلف عن الفلسفة التي تدين بها الفئة الاخرى ، او ايضاً ، لان اختيار كل من هؤلاء الاقطاب ، كان يختلف عن اختيار الآخر، نسبة للبيئة التي يعيش فيها،او نسبة لتطور مجتمع اكثر من مجتمع، او نسبة لما يلاقيه هذا الشكل من الاشتراكية من مناهضة السلطات الحاكمة في بلدٍ ما ، أو عدم مناهضتها في بلد آخر. كل هذه الاسباب افسحت مجالاً للفوضى في صفوف الاشتراكية . ولقد طالما نشأت الخلافات بين الاقطاب انفسهم ، فكان واحدهم ينتقل من صف الى صف ، ومن معسكر إلى معسكر ، بل لقد طالما نشبت حرب بين الداعين للاشتراكية ، هذا يتهم ذاك، وذاك يكفّر هذا ، وينسب له الخيانة الاشتراكية وهلم جرا . وسبب ذلك بالتأكيد ، هو عدم انطلاق الفكرة الاشتراكية من مبدأ واحد يصح اتخاذه اساساً ثابتاً لهذا الانطلاق.

وسط هذه الفوضى ، تنبهت البورجوازية الى امرها ، وعمدت الى الاستنجاد بدهاء السياسة لاستغلال الفوضى القائمة ، وكان من جراء ذلك قيام احزاب سياسية متعددة ، كلها تدّعي الاشتراكية وتراودها على الرغم من شدة ابتعادها عن حقيقة الاشتراكية

وجوهرها وغاياتها . في فرنسا ، الحزب الاشتراكي الراديكالي ، والحزب الاشتراكي الجمهوري ، والحزب الاشتراكي المستقل ، والحزب الاشتراكي (بلوم) ولا اعرف ماذا ايضاً . في انكلترا الحزب الاشتراكي العمالي، شطرٌ منه يتجه يميناً ، وشطر يتجه يساراً. في المانيا ، الحزب الاشتراكي الديموقراطي ، والحزب الاشتراكي القومي (هتلر) والحزب الاشتراكي المسيحي ، والحزب الاشتراكي الاجتماعي . في ايطاليـــة ، الحزب الاشتراكي المسيحي والحزب الاشتراكي المنشق ، واخيراً الحزب الاشتراكي الجمهوري . في سائر الدول كلها تألفت الاحزاب الاشتراكية . كل من هذه الاحزاب يتبنى مبدأ يتمشى عليه ، أو يختار طريقاً يسير عليها . وبعد الحرب الاخيرة سرت العدوى الى العالم العربي، ففي كل من دوله ، بالطبع ماعدا دول الجزيرة العربية حيث لا احزاب وحيث الكلمة للملك وحده ، تألفت احزاب اشتراكية إما على مبادىء قومية ، او على مبادىء انسانية ، او على مبادىء اصلاحية، اوعلى مبادىء اجتماعية. ان قيام هذه الاحزاب ، في الغرب والشرق ، لدليل واضح على ان الانسان لم يعد يطيق البورجوازية الرأسمالية ولاشكل مجتمعيتها .

على ان ما تجدر ملاحظته، هو ان معظم هذه الاحزاب انشئت على اساس انساني واجتماعي ، وفي كثير منها ، العامل الاقتصادي والانتاجي والمعيشيّ قليل الاهمية . وانه لاسهل عـــلى العوامل الانتهازية ، ان تتدخل في المحيط الانساني والاجتماعي وتؤثر فيه، اكثر مما تستطيعه في العامل الاقتصادي والمعيشي. ففي يدهاسلاح يفعل في المحيط الاول ما لا يفعله في المحيط الثاني ، وهو الفلسفة

الميتافيزية والروحانية ، هذه الفلسفة التي تحدد القيم والمناقب حسب مفهومها واراء اعلامها. فاذا كان المحيط الاقتصادي والمعيشي يؤثر العلم، فالمحيط الانساني والاجتماعي يؤثر الفلسفة ويطمئن إليها اكثر.

من هذا تتبين لنا اسباب الفوضى والخلافات بين الاحزاب الاشتراكية الانسانية والاجتماعية والاصلاحية. وهذه الفوضى ليست الا تكملة للفوضى التي تتخبط فيها الفلسفات الانسانية والروحية والاجتماعية والاصلاحية نفسها. على انه اذا صح اعتبار العامل الانساني الاجتماعي احدى دعائم الاشتراكية ، فلا يصح ان يعتبر العامل الروحاني الديني دعامة لها. فالاحزاب الاشتراكية المسيحية ، الموجودة بكثرة، ولا سيما في العالم اللاتيني،ليست اكثر من هرطقة في الاشتراكية. فالكنيسة البابوية على الاخص ، وهي التي يصح اعتبارها ممثلة المسيحية الاولى ، هي العدو الاكبر للاشتراكية وانظمتها. فهي لا تقرها ولا تعترف بها ، بل تعدها شكلاً من أشكال الكفر : « ليس بوسع الكاثوليكي ان يكون اشتراكياً » (البابا بيوس الحادي عشر عام ١٩٣١) . و « ان تساوي الناس في طبيعتهم لا يعني مطلقاً انه يتحتم مساواتهم اجتماعياً » (البابا بندكتوس الخامس عشر) و « على الاساقفة والكهنة أن يبشروا بالمحبة الاخوية ، التي ليس من شأنها ازالة التفاضل بين الطبقات ، بل في وسعها ان تلهم ابناء الطبقات الرفيعة والاغنياء ، الى التقرب من ابناء الطبقة الوضيعة والفقراء ، وتعاملهم ليس فقط بالعدل ، بل بالرحمة والصداقة والمحبة الروحية،وعندئذ يشعر الفقراء بالغبطة من سعة الاغنياء ، ويعتمدون على مساعدة الاغنياء لهم . »

(من خطاب للبابا ليون الثالث عشر) . هذه التعاليم والفرضيات وما كان على شاكلتها ، لا تتلاءم قطعياً مع التعاليم والمبادىء الاشتراكية . اذن فالاحزاب الاشتراكية المسيحية ، هي اما هرطقة في الاشتراكية او هرطقة في المسيحية . ان واقع هذه الاحزاب يعطي الف دليل ودليل على ان هرطقتها هي في الاولى لا في الثانية . وليس من الغرابة في شيء ، الا تهضم الكنيسة المبادىء الاشتراكية ، وهي القائمة على اساس العصمة الدينية التي لا تقر بها سنة التطور ، ولا تتفق مع جوهر الاشتراكية .

وخلاصة القول ان العامل الانساني وحده ، لا يصح اتخاذه قاعدة اساسٍ لبناء الاشتراكية ،هذا مع الاقرار باثره في هذا البناء. حتى اكثر المتحمسين والمتعصبين للاشتراكية المادية العلمية ، لا ينكرون فضل « اوين » و « سان سيمون » و«فوريه»و«لاسال» وغيرهم . اولئك كانوا صادقين في نياتهم ، ولكنهم كانوا يضلون الطريق لبلوغ غاياتهم السامية ،مما افسح المجال للانتهازيين ،لاستغلال الغاية ، ووضع العراقيل في الطريق . ففي حياة ماركس بطولها ، لم يصدر عنه ما يسيء الى احد من الاشتراكيين الانسانيين ،الا اذا شعر بان الانتهازية دخلت الى اشتراكيته ، مع ان المعروف عن ماركس ، انه كان شديد الوطأة ، كثير التهكم ، لاذع النقد، على الاشتراكيين غير العلميين . في كل ما قرأنا مما كتبه ماركس ، او مما كتب عنه، لم نجد ذماً لشخصية « اوين » مثلاً ، لانه كان يعترف له بالاخلاص ، على الرغم من عدم ايمانه بصوابية نهجه .

اذن ما كان ينقص الاشتراكية ، هو ايجاد ثابت وعلمي لها ،

بحيث لا تستأثر بها الفلسفة الميتافيزية ، وتجعل من غاية الاشتراكية ، المحور الوحيد الذي يدور حوله نشاط العاملين لها ، لكي لا ينتج عن اختلاف الاسس والطرق المتبعة ، وتنازعها احياناً ، اختلاف وجهات النظر في مفاهيمها ومقاييسها ، وتحديد الغاية منها ، وتفسيرها ، كما هو حاصل بالفعل في الاحزاب الاشتراكية المختلفة ، مما قد يؤول بالنتيجة الى مسخ الغاية نفسها . ونظرة عجلى الى الاحزاب الاشتراكية الراهنة ، تكفي لان يحسب لهذا الافتراض حسابه .. فكم من حزب اشتراكي لا يتعرف الى الاشتراكية الا بالاسم . وكم من حزب اشتراكي آخر ، يخدم البورجوازية الرأسمالية اكثر مما يخدم الاشتراكية العمالية . وكم من حزب اشتراكي وضع يده بيد الرجعيين وساعدهم على التقدميين . قد يدّعون ان احزابهم هي اشتراكية بورجوازية . نعم كثيراً ما سمعنا بهذه التسمية . ولكنها ليست الا نوعاً من انواع الشعوذة ، اذ ان الاشتراكية البورجوازية لا وجود لها الا في مخيلات فلاسفة الكلام والدجل .

ان البناء الاشتراكي ، يحتاج الى اساس ثابت ومتين . والاساس الثابت والمتين لا يكون كذلك الا اذا كان مستلهماً من العلم والحقائق العلمية والتاريخية ، وليس مستلها من الفلسفة والفرضيات والاختبار فقط . ومنذ خرج « فورباخ » من النطاق الميتافيزيقي ، الى النطاق المادي ، وقلب فلسفة هيغل المثالية والعقلانية ، الى فلسفة مادية ، واطلق الانسان من قيوده الميتافيزية ، وحرر الدين ايضاً منها (Feurbach's Essence of Christianity) فتقت لمـاركس فكرة توضيح الاشتراكية وبناء المجتمع الاشتراكي ، ومعالجـة

المشاكل الاقتصادية والاجتماعية ، على اساس علمي ديالكتيكي . ومنذ ذلك الحين ، نشبت المعركة بين الاشتراكية المادية العلمية ، وبين الاشتراكيات الاخرى . وهي لا تزال محتدمة ؛ على ان البوادر تتوالى وتتزايد على ان النصر سيكون بجانب الاشتراكية المادية العلمية التاريخية ، كما كان النصر بجانب العلم على الفلسفة .

ان الاشتراكية العلمية هي انبثاق من الديالكتيكية المادية والديالكتيكية التاريخية، اساسها العلم ، ومؤيدها مجرى التاريخ . ان قطار التاريخ الذي سار في مراحل متعددة ، تسود في كل منها طبقة ذات مصالح اقتصادية وايديولوجية واجتماعية واحدة او متقاربة، والذي مرّ على المرحلة المجتمعية الاستعبادية ، فعلى المرحلة البورجوازية الرأسمالية ، يقف اليوم على باب مرحلة جديدة ، هي المرحلة الاشتراكية ، التي ستسود فيها الطبقة العمالية ، ذات المصالح الاقتصادية والايديولوجية والاجتماعية الواحدة او المتقاربة والمنسجمة . وفي اثناء هذا الانتقال ، لا بد من تصارع الطبقتين ، الطبقة البورجوازية المهددة في سيادتها ، والطبقة العمالية الطامحة الى انتزاع السيادة منها . وفي هذا الصراع ، تتجلى قوى الفريقين ، ويشحذ كل منهما سلاحه ، لكسب المعركة الحاسمة . وعندما تنتهي المعركة الفاصلة بين الطبقتين ، ويفوز فيها الاقوى ، وهو الطبقة العمالية ، اذا كان مجرى التاريخ عبرة ، يكون قطار التاريخ قد وصل الى المرحلة الاشتراكية الحقيقية ، حيث تنشر الطبقة العمالية لواءها ، وتسود المجتمعية الاشتراكية . على ان قطار التاريخ لن يتوقف، وسيستمر في مسيره الى مرحلة أجدّ وافضل، حيث لا طبقات مجتمعية ، بل انسانية شاملة .

مشكلة الحرية

•

اسياد « العالم الحر » ناقمون وحاقدون على « العالم غير الحر » – بنظرهم – لفقدان الحرية فيه . هؤلاء الاسياد تأخذهم الشفقة على شعوب ذلك العالم ، فيتطوعون للدفاع عن حرية هذه الشعوب ، ويمنّون شعوبهم بالحرية التي تتمتع بها ، ويستصرخونها للقيام بحملة صليبية في سبيل الدفاع عن الحرية المفقودة في العالم الآخر . ان هذه الغيرة التدجيلية تستحق بعض الاهتمام في هذا البحث .

الحرية ليست مطلقاً ، وان من يعتبرها كذلك لا يعي قيمتها ولا يدرك مناقبيتها . الحرية ليست عملية حسابية ١ + ١ = ٢ . انها مفهوم تفسّر بواسطته علاقات البشر بعضهم مع بعض وتعاقد الانسان مع الانسان ومع المجتمع الذي يعيش فيه . انها قيم ومناقبية يسمو بواسطتها الانسان عن الحيوان . ان للحرية مقومات ، وهذه المقومات هي حقوق يتمتع بها الانسان وواجبات يترتب عليه التقيد بها . والحرية التي تتعرف الى الحقوق ولا تتعرف الى الواجبات هي حرية حيوانية ليست جديرة بالانسان .

الحرية المطلقة لا توجد الا في عالم الحيوانات البرية غير الاليفة . الحيوان البري يتمتع بمطلق الحريات ، يأكل ما يريد ، يشرب

ما يريد حتى إنه يشرب دم رفيقه ، يفترس دون ان يخشى لوماً ولا حكماً ، يعوي دون ان يهتم لازعاج احد ، ينشر قذارته على الارض دون ان يرف له جفن من الخجل ، يهجم على المارة من الناس او على غيره من الحيوانات دون ان يردعه رادع . هو مطلق الحرية فيما يريد عمله وفيما لا يريد عمله . حريته مطلقة الى ابعد حدود الاطلاق . ولكن حرية الحيوان هذه ليست مناقبية ولا تسمو به. انها حرية حيوانية .

الانسان البدائي ايضاً كان يتمتع بحرية مطلقة ، لا وازع ولا رادع ، لان الانسان البدائي لم يكن يتعرف الى المجتمع كمجتمع ، ولم يكن عنده مناقبية ، ولم يكن يتقيد بواجبات . انه كان في حياته اقرب الى الحيوانية منه الى الانسانية التي تتجلى وتسمو مع تطور الانسان والمجتمع .

غير ان مفهوم الحرية تطور وهو لا يزال يتطور مع تطور الانسان ، واصبح هذا المفهوم يشمل ،عدا الحقوق التي تخولها الحرية للانسان ، الواجبات التي تفرضها عليه ، لكي تكون الحرية قيما ومناقب تسمو به الى الدرجة التي تخوله اياها انسانيته وتسمو به عن الفصائل الحيوانية والانسانية البدائية .

وما دامت الحرية ليست مطلقاً ، وما دامت تنطوي على حقوق وعلى واجبات ، وما دامت الحرية لا يمكن ان تكون حرية فردية تجريدية ، اصبح لزاماً ان يكون عليها وازع ورادع لكي لا يختلط حابلها بنابلها فتنقلب الحرية الى فوضى مجنونة وتفقد مناقبيتها.

لو كانت الحرية مطلقاً ، او لو كانت عملية حسابية ، جمعاً

وطرحاً وضرباً وقسمة ، او لو كانت الحرية لا تخضع لقيد ولا لشرط ، لما قامت الحكومات ولما وضعت الانظمة والقوانين . ان مجرد سن قانون هو قيد للحرية . ان القانون الذي يفرض على المارة ان يمشوا على رصيف الطريق وليس في وسط الطريق ، والقانون الذي يفرض التعليم الاجباري في الدولة ويفرض التلقيح الاجباري ضد الاوبئة ، والقانون الذي يمنع تعاطي المسكرات او يحدد استعمالها ، والقانون الذي يحدد للتاجر اثمان سلعه وللمالك ايجار بيته ، والقانون الذي يقضي بانتزاع المريض المصاب بالتيفوس مثلا من بيته ووضعه في المستشفى ، والقانون الذي يمنع المرأة من استعمال جسدها حسبما تريد ، والقانون الذي يفرض شروطاً صحية وهندسية على كل من يريد ان يبني بيتاً ، والقوانين التي بموجبها تأخذ الحكومة من مال بعض الناس لتعطيه للبعض الآخر ، والقوانين التي تقضي بعدم تعاطي البغاء والقمار ، والقانون الذي يفرض الخدمة العسكرية على كل شاب ويجبر الشبان على الذهاب الى الحرب لكي يُقتلوا من اجل وطنهم ، والقانون الذي يمنع المتاجرة مع بلد ويجيزها مع بلد آخر ، كل هذه القوانين ، بل كل قانون على الاطلاق يشكل بحد ذاته تعدياً على حرية الفرد وحرية الجماعة .

اذن للحرية وازع ورادع هو القانون . والقانون يضعه ذلك الشكل من اشكال المجتمع الذي يسمى دولة . ومن الآن الى ان يصل الانسان والمجتمع الى طورهما المثالي ويصبح الانسان هو الوازع والرادع من نفسه وعلى نفسه ، تبقى الدولة هي المهيمنة على الحرية . وبقدر ما تكون القوانين في مصلحة المجموعة الساحقة

من المجتمع الذي تؤلفه ، ان لم يكن في مصلحة المجموعة كلهـــا ، وبقدر ما تضمن القوانين من هنـاء وسعادة للمجموعة كلها او على الاقل لكثرتها الساحقة ، تكون الدولة المهيمنة على القانون قـــد قامت بالقسط المفروض عليها والمنتظر منها باعتبارها دولة . اذن لا مناص من هيمنة الدولة على القانون وبالتالي على الحرية في هـذه المرحلة التاريخية من التطور الى ان يأتي الوقت ، الذي لا يُعرف بالضبط متى يأتي ، عندما لا يعود من مبرر لوجود الدولة . تلك هي المرحلة التطورية التي تتحدث عنها وتسعى للوصول اليها الفلسفة المـــادية العلمية .

ومن اعجب العجب ان يتغنى اسياد « العـالم الحر » بالحرية ويضعوا لها قوانين مستلهمة بالظاهر من ميتافيزيتهم المثالية وبالواقع من مصلحتهم الشخصية ، مدللين على تمسكهم بالحرية وتقديسهم لها بالقوانين التي يضعونها ، والتي تبيح للأنسان ان يستثمر أخاه الانسان وتبيح للفرد ان يتحكم بمعيشـة الفرد الآخر ، وفي الوقت نفسه تبيح للفرد المستثمَر ، والمستعبَد ، ان يشكو ويتذمر ويسب مستثمِره او مستعبِده !!! قوانينهم تطلق الحرية للمعدم وللمحروم وللمستعبَد لكي يسب ويرفع عقيرته بالشكوى والاحتجاج وتخوله حرية القول والكلام ، حاسبةً ان هذه الحرية تكفيه ، على انها في الوقت نفسه تطلق الحرية ايضاً للمستثمِر أن يستثمر وللمتحكم ان يتحكم وهي تسمي ذلك مزاحمة شريفة ، متجاهلة ان المزاحمـــة الشريفة لا تكون بين قوي وضعيف وبين متخم وجائع . فالجائع لا يستطيع ان يكون حراً ما دام قوته وكفافه متوقفين على حرية

المتخم ، والضعيف لا يستطيع ان يكون حراً ما دام الدواء لضعفه في جعبة القوي الذي هو ايضاً له حقه في الحرية بما يملكه او بما يعطيه تقنيناً مفروضاً ، او بما لا يعطيه ابداً . ان الانسان الذي تتوقف معيشته على انسان غيره لا يستطيع ان يكون حراً حقاً لا في قوله ولا في رأيه ولا في انتخاب حكامه ولا في مساهمته في تكييف مجتمعه. فاذا لم يتحرر الانسان من الخوف على نفسه من الجوع والحرمان والمرض والموت فعبثاً تسن القوانين للحرية ، ويبقى التغني بها نوعاً من انواع الدجل والتفشير ، ويكون القانون الذي يطلق الحرية للمستثمر ان يستثمر وللمحروم ان يشتم ويسب وسيلةً لحرمان المحروم والضعيف والجاهل منها . اذن لا مناص للحرية من مهيمن، وهذا المهيمن هو الدولة التي تعتبر كل انسان في مجتمعها انساناً ، ولا تخول فرداً او فئة من مجتمعها ان يتحكم بافراد او جماعات اخرى ، وان تفسح المجال لكل عضوٍ في مجتمعها لاظهار مناقبيته وقدرته على الخلق والابداع. ان الحرية ليست شيئاً هيولياً ، بل هي مناقبية من مناقبيات المجتمع لها اسسها ومقوماتها . واهم هذه التحررُ من الخوف على النفس والتحررُ من الحرمان. والمجتمع او الدولة التي لا تحرر الانسان، كل إنسان ، من هذا الخوف تكون حريتها حرية مثالية وهيولية ولا مناقبية ولا تصلح الاّ للتغني ونظم الاشعار*. وهذا النوع من الحرية لا يشبع جائعاً ولا يغني محروماً

*بعد صدور الطبعة الاولى من هذا الكتاب كتب إلي عامل بسيط بتوقيع « احمد » يطلب حذف الجملة الاخيرة اذ ان الحرية الهيولية لا تستحق تغنياً ولا اشعاراً كي لا يكون ذلك مجرد رصف كلام وجعجعة . انها ملاحظة جديرة بالاعتبار تعطي الدليل على وعي الطبقة العمالية .

ولا يفسح للفكر مدى الانطلاق ولا يستفيد منه غير المتاجرين بمثالية الحرية وهيوليتها وميتافيزيتها . ان الحرية جوٌ يتمكن فيه كل انسان من اظهار قدرته في الخلق والابداع .

عندما يتبجح أسياد « العالم الحر » بحرياتهم وعندما ينعون الحرية في غير عالمهم ، وعندما يدّعون ان قوانينهم تطلق الحريات وقوانين غيرهم تقيدها ، والقانون منذ ان كان قانوناً هو قيد للحرية ، انما يقصدون بذلك اعطاء صفة الافضلية للقوانين التي يسنونها هم على القوانين التي يسنها سواهم . هنا مجال للبحث قد يخرجنا من المحيط العلمي والفلسفي الى المحيط السياسي ، وهو المحيط الذي يهمهم اكثر كثيراً مما يهمهم المحيط العلمي والفلسفي ، ويسخرون له كل ما اوتوه من علم وفلسفة . اما ان تكون القيود التي تفرضها قوانينهم على الحريات خفيفة الثقل بينما قوانين غيرهم شديدة فذلك يتوقف على نظريتهم فيمن يجب ان يتحمل ثقل القوانين اكثر من غيره . ونظريتهم هذه معروفة من واقع الحياة عندهم حيث الحرية مباحة للغنى وللفقر ، للسعادة والتعاسة ، لرفاه العيش وبؤسه . الغني حرٌ في ان يغتني ولو على حساب الفقير ، والفقير حر في ان يختار بين ان يعيش من الغني او يموت قانعاً بحريته في الموت . الضعفاء ليسوا اقل حرية في آرائهم ومعتقداتهم من الاقوياء ، ولكنهم يدفعون ثمناً غالياً عن حريتهم اذا اصطدمت آراؤهم باراء الاقوياء . ومتى كان القانون يبيح للمستثمِر ان يستثمِر ، ويبيح للقوي ان يتحكم ، ويبيح للمحتكر ان يحتكر ، فما هي عندئذ قيمة الحرية التي يبيحها القانون للعامل او للفقير او للضعيف ما دامت حريته مرهونة بحرية

الآخرين ، وما دامت معيشته وحياته متوقفتين على مدى حريتهم ؟ ان الاكثار من التحدث عن الحرية والتبجح بها والدعاية لهـا اصبح امراً في منتهى الابتذال .

إن هذا الاكثار الذي كثيراً مـا نجـده في محيط الاقوياء والاغنياء والمترفين والمحظوظين ، وقلما نجده بل لا نجده في محيط الضعفاء والفقراء والمحرومين ، هو نظير الاكثار من الصلاة والتبشير بالقناعة وبالسعادة الابدية في الآخرة . انه إلهاء عن الواقـع بقصد اخفائه وراء ستار من الاوهام . هي الميتافيزية دائماً الـتي خلقت الحرية المثالية كما خلقت الروح الهيولية ، فخف عندئذ تجـار الحرية الى استغلالها كما خف قبلهم تجار الروح الى استغلالها . وفي استغلال كلتا المثاليتين تنكّر للمناقبية وازدراء بها ، اذ من العار والصفاقة ان تستغل الحرية ويتاجر بها .

ملحق

حديث مع قافلة الشباب *

•

يطيب لي ايها السادة ان ابدأ بكلمة شكر لهذا المعهد الكريم الذي تلطف بدعوتي الى منبره ، والحّ بالدعوة عليّ قدر ما الححت بالاعتذار ، لا لعدم رغبتي في التحدث الى هذه القافلة الصاعدة من الشباب، بل خشية ان يثير الحديث مع الشباب حفيظة من يخافون وعي الشباب . غير ان منبركم الحر، لقلة ما عندنا من المنابر الحرة، استهواني ، فقبلت الدعوة وقابلت شجاعة الداعي بشجاعة مثلها لأعيش ساعة من الزمن مع قافلة من شباب هذه الامة الحائرة .

ولكنها على كل حال جرأة ليس في وسعكم ان تنكروها عليّ ان البي دعوة صديقي مدير هذا المعهد الزاهر ، انا ابن الامس واليوم فاخاطب شباباً هم فرسان الغد وامل المستقبل . بل هي اكثر من جرأة ، ان يقف مخضرم امام قافلة من الشباب يشعّ من عيونهم بريق النور ، ليقول لفرسان القافلة، كيف يجب ان تسير قافلتهم،

* محاضرة القيت على طلاب الصفوف العليا في كلية المقاصد الخيرية الاسلامية عام ١٩٥١ .

والى ماذا يجب ان تهدف . فالشباب في نظري هو النور والحياة ، والشباب نفسه ، هو الذي يجب ان يوجه قافلته ، الى ما يهدف هو اليه، لا الى ما يهدف اليه ابناء الامس ، او ابناء اليوم المخضرمون.

ولكني لن اتهرب من واجب فرضته عليّ ثقتكم، انا الذي كاد السأم يستحوذ عليه ، وكادت الخيبة تقطع عليه طريق الرجاء، لولا بارقة امل تحمل شعلتها قافلتكم ، قافلة الشباب المنطلق ، لتنير بها سبيل العزة والسؤدد والمجد .

نعم ايها الشبان ، ان المستقبل لكم ولمن سيأتي بعدكم وليس لنا . وان صنع المستقبل هو في ايديكم وليس في ايدينا نحن . فلا تغرّنكم اقوال يحدثونكم بها ليخدروا حيويتكم،عن حكمة الشيوخ وحنكتهم وصبرهم على المكاره والالام . بارکوا لهؤلاء بحكمتهم وحنكتهم وصبرهم ، بل اتخذوا من هذه اذا شئتم درساً لكم وعبرة ، فيما انتم ستعملون بانفسكم . على انه اذا جاز لكم ان تأخذوا منها درساً وعبرة، فمن غير الجائز ان تقلدوها او تتخذوها مثالا لكم. فايامكم غير ايام اصحابها وساداتها ، وآمالكم وامانيكم غير آمالهم وامانيهم . هؤلاء خُلقوا لعهد، وانتم خُلقتم لعهد آخر . عهدهم عهد الصبر والاقدار كان ، وعهدكم عهد الوثوب واليقظة سيكون ، وانه لفي مقدوركم وحدكم ان تغيروا ما كان الى ما سيكون ، بل الى ما يجب ان يكون .

الى هذا الحد فقط بلغت جرأتي عندما قبلت الدعوة ، فجئت لا لأدلكم على الطريق التي ستمشونها انتم ، بل لأحذركم من مزالق الطريق التي مشيناها نحن،ومن اعوجاجاتها التي اضلتنا سواء السبيل.

هذه هي مسؤولية الجيل القديم ، او مسؤولية الجيل المخضرم تجاه الجيل الجديد. وسأسعى في هذه الدقائق المحدودة الى الاضطلاع بمسؤوليتي في التشخيص، تاركاً لكم مسؤوليتكم في توفير العلاج. وان ثقتي بوعي الشباب واخلاصه ويقظته ومقدرته على الوثوب ، هي البقية الباقية في صدري من امل بمستقبل سعيد لأمتي وبلادي.

بوسعي ان اهنئكم ان العصر الذي ستعيشونه سيكون عصر التحرر والانطلاق . وهو العصر الذي كنا نمني انفسنا به دون ان نهتدي الى الطريق التي توصلنا اليه . ذلك لان الفلسفة التي اعتنقناها، وسرنا عليها في حياتنا ، تارة مختارين وتارة مكرهين ، كانت قائمة على التواكل والاستسلام . التواكل على كل من كنا نفتح اعيننا على حسناتهم مهما قلّت ، ونغمض اعيننا عن سيئاتهم مهما كثرت ، ولا نحسب اي حساب لنياتهم نحونا ، سواء احسنوا ، ام اساؤوا. والاستسلام لما يفرضه علينا القدر ، او لمن يدّعون فهم الأقدار اكثر منا ، فيرسخونه في معتقدنا لكي نطمئن الى الاستسلام له ، ويطمئنوا هم الى استسلامنا .

التواكل والاستسلام ، علتان من علل الشرق ، كانتا ولا تزالان سبباً لتأخره . الشعب يلقي حمله على حكامه وزعمائه ، والمتزعمون ينوءون بالحمل ، لأنهم ليسوا زعماء بل متزعمون ، فيلجأون الى التهرب من مسؤولية ألقاها الشعب عليهم خطأ ، وإحالتها على من لا يعبأون بها إلا بقدر ما يفيدون منها . والغريب أن الشعب ومتزعميه يتلهون بالندب والنحيب والتواكل على الغير الشفوق الرحوم (!) لكي يتطوع هذا للترفيه عنا ،

ودفع الكوارث عن قومنا وبلادنا. والغريب اكثر واكثر ان يبقى المتزعمون متزعمين وأن يبقى الشعب، باطناً او ظاهراً، مؤمناً بزعامتهم، يحرق امامهم البخور، ويقرع لهم الطبول، ساكتاً على تزعمهم، خاضعاً لأوامرهم وتعاليمهم، منتظراً ان يأتيه الغوث منهم او بواسطتهم، من المتبرعين بالغوث، او على الاصح من المقايضين عليه مقابل اثمان تُدفع من الاباء والكرامة. ليت هـؤلاء واولئك يعلمون ان الاستغاثة ضعف، وان التبرع بالغوث شركٌ ينصبه الأقوياء للضعفاء لكي يبقوا ضعفاء، فتسهل قيادتهم، بل يسهل استعبادهم والتحكم بهم. وليست كارثة فلسطين من اولها الى آخرها، في إبان المعركة وبعد انكسارنا فيها، في المؤتمرات التي عقدت لدرسها وفي المؤتمرات التي لا تزال تُعقد لحلها، او للتظاهر بحلها، في معالجة المحنة التي حلت باخواننا المشردين والمنكوبين، في التظاهرات الاحسانية التي يقوم بها المحسنون السياسيون، في الدعايات التي يبطنون بها اغراضهم وغاياتهم منها، في الوعود التي يقطعها من لا يقيمون وزناً للوعود والعهود، اقول ليست هذه الكارثة، في ظواهرها ومضامينها إلا مثلاً من ألف على تهرب المسؤولين الحقيقيين من مسؤولياتهم، ومثلاً صادقاً على نفسية تواكلية، من المحال ان يستقيم لهذه الامة امرٌ إذا لم يعمل الشباب، اي إذا لم تعملوا انتم، للقضاء عليها وعلى الذين يتملقونكم بها ويستغلونكم بواسطتها.

قلت ان العصر الذي ستعيشون فيه هو عصر التحرر والانطلاق. سميته عصر التحرر لا عصر الحرية، لاني بتّ انفر من هذه الكلمة، لكثرة ما يتبذل المتحدثون عنها ويناورون في مفاهيمها، يتبجحون

بها بلسانهم ، ويتغنون بها في خطبهم، ولكنهم يحملون لها في قلوبهم حقداً ، وينحرونها في اعمالهم نحراً ، ويسيئون الى قيمها ، بينما هم يدعون كذباً وبهتاناً انهم يحافظون عليها . ألا تباً للحرية اذا كان القيّمون عليها مستعبدين، وتباً لها إذا كان دعاتها مارقين وخداعين. اعيذكم ايها الشبان من حرية مستعبدة فكراً ، ومستعبدة مادةً ، ومستعبدة عقيدةً . أعيذكم من حرية زائفة كاذبة، تخشى الانطلاق، بل يخشى ابطالها كل حركة تؤدي الى التحرر والانطلاق .

اظنكم تقرونني ايها الشبان ، وانتم الذين اتيتم الى هذا المعهد باحثين عن المعرفة ، اظنكم تقرونني على ان العامل الاول والاهم ولعله الوحيد ، للتحرر والانطلاق ، هو عامل العقل الذي تميز به الانسان عن سائر الفصائل الحية . هذا العقل الخلاق ، والعقل بطبيعته خلاق، هو المهيمن الاعلى على حياة الانسان ومجتمعه وانظمته. هو الذي رفع الانسان الى الذروة العليا بين الكائنات . هو الذي يستنبط للانسانية قيمها ، وللروحانية مثالياتها ، وللنظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية مقاييسها . ويحدثونكم عن مثاليات وفلسفات غيبية يقصر العقل عن ادراكها ، ويتوجب عليه الخضوع لها وللقائلين بها ، فقولوا لهؤلاء ما قاله فيلسوف المعرة ابو العلاء :

كذب الناس لا امام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء

كان الانسان في الازمنة الماضية يعيش في عصور الروحانية والبديهيات تتجاذبه ميول عابرة، وتتقاذفه اهواء مستترة اوظاهرة، وهو بين مستسلم قانع ، ومتمرد مضطهد . وظل كذلك حتى اطل القرن التاسع عشر ، واخذ العقل البشري يتحرر من القيود التي

حكّمتها به على مرّ الزمن سلطات اتخذت الروحانية ديدناً لفرض ارادتها المطلقة، بغية تطويعه لحتميتها . ومن ذلك التاريخ الى الآن والحرب سجال بين العقل والروح ، او بالاحرى بين فلسفة تقول بخضوع العقل للروح وفلسفة تقول بان العقل هو مبعث الروح . ولقد طالما اتهم الروحانيون خصومهم بالزندقة ، كما اتهم العقليون خصومهم بالبساطة والخداع ، والعالم حائر بين تيارين متنازعين . على ان ما ليس بالوسع انكاره او تجاهله ، ان التيار الروحاني آخذ بالتقلص شيئاً فشيئاً . ومرد ذلك الى تشبث الروحانيين بميتافيزية غيبية لا يقرها العقل الخلاق ، وليس بوسعه القبول بها والرضوخ لحتميتها ومعصوميتها .

واذا اخذنا بقسمة العالم الى شرق والى غرب ، الاول مُشْرَب، بالروحانية ومتمسك بها - لولا الماضي القريب - والثاني متحول عنها فعلاً ، ومتظاهرٌ بها قولاً ودعاية وسياسة ، لتبين لنا ان الروحانية كانت السبب الاكبر لتأخر الشرق واستعباده من قبل الغرب ، منذ ان اخذ الغرب يتحول عن روحانيته ، ليحل محلها فلسفة المعرفة والعقل الخلاق في مفهومه للتطور البشري وفي اعتماده عليها في تكييف حياته وازدهار حضارته وتوسيع نفوذه وسيادته، ورفع مستوى معيشته ومجتمعه . لا تجزعوا ايها الشبان اذا قلت لكم دون تردد ولا وجل ان الروحانية والمعرفة لا تتفقان الا بقدر قليل وقليل جداً . فالروحانية بنت الغيب المجهول ، والمعرفة بنت العلم ، والحقيقة بنت المعرفة ، والمعرفة تتطور بتطور التلافيف الدماغية المولدة للعقل وبتهذيبها وصقلها . واقولها قبل ان يعتب

عليّ رجال الدين ، ان الروحانيـة غير الدين ، بل اكثر من ذلك، اقول ان الروحانية اذلت الدين ، عندما جعلت منـه آلة مسخرة بيد المتظاهرين بالغيرة عليه. الدين في الاصل فلسفة انسانية واجتماعية ، اوكلها الاقدمون الى الغيب ، لان العلم لم يكن وصل في عصورهم الى ماوصل اليه في عصورنا . في تلك العصور السحيقة لم يكن الانسان يدرك قيمة للعلم والبحث والاختبار ، ولم يكن يدرك ان للمسببات اسباباً ، بل كان ينسبها الى فعل المجهول ، لان الانسان نفسه كان جاهلا ويعيش في المجهول . اما والعالم في تطور مستمر ، والانسان يتطور بهذا التطور ، بتطور العقل والمعرفة ، فمن غير المقبول عقلياً ومنطقياً، ان تستثنى الفلسفة الروحانية، او اية فلسفة غيرها، من تطور تقضي به سنة الطبيعة في التقدم والارتقاء، هذه السنة التي لم يعد يتجاهلها الا عميُ البصيرة والقلوب والمكابرون . ليت الروحانيين يقلعون عن مكابرتهم وتشبثهم ، ليتهم يغارون حقاً على الدين ، فـلا يذلونه ولا يفرضون حتمياتهم عليه، ليتهم يجردونه من اوهامهم وشعوذاتهم، ويعرفون ان الدين ليس هو إلاّ علاقة الانسان برب يعبده، وعقيدة تبشر بالخير وتنهى عن المنكر، ليتهم يرفعونه عن الزمنيات ويبعدون تعاليمه عنها دون ان يتخذوا منها او من طقوس الدين ومن تباين نزعات المتدينين وسيلة لنفوذ تدفعهم غاياتهم الى الطمع به ، وهو لا يمتّ باية صلة الى حقيقة الدين . ليتهم يجردون الدين عن السياسة والتشريع والتوجيه المذهبي والتعصب الطائفي لكي يكون الدين ديناً وحسب ، فعندئذ لا يبقى تناقض بين الدين والمعرفة ، وبالتالي لا يكون الدين عقبة في تطور المعرفة .

ولا إخالني خارجاً عن الموضوع اذا قلت بهذه المناسبة، بان الاشادة بالفلسفة الروحانية التي يبشر بها الغرب ، او على الاصح قسم من الغرب ، لم تعد اشادة موضوعية ، بل أصبحت من قبيل الدعاية المقصودة لغرض مقصود . فعندما يقول المبشرون ان القيم الانسانية التي يحرصون على تسميتها بالقيم الروحية لكي تأتلف مع دعاياتهم الروحانية – عندما يقولون ان هذه القيم مرهونة بالفلسفة الروحانية وحسب،فقولهم هذا لا يخلو من عامل التضليل والتجهيل. فالروحانية التي خلعوها هم عنهم ، واتاح لهم خلعها والتحرر من قيودها وطقوسها وشعوذاتها ، فرصة القيام باعمالهم الجبارة،فكشف لهم العلم عن حقيقة الاشياء ، ظاهراتها ومسبباتها،واوحت لهم المعرفة تذليل قوى الطبيعة ، فاستخرجوا طاقتها الكهربائية والذرية والهيدروجينية ايضاً، وشقوا البحار،وخاضوا الامصار، واكتشفوا للاوبئة اسباباً غير الارواح الشريرة التي كانت تعتقد بها الروحانية، وذللوا الصعاب ، وتحكموا بالحياة وكادوا يتحكمون بالموت، هذه الروحانية التي انصرفوا عنها هم ، بينما نراهم يمجدونها في الشرق ، ويساعدون على استقرارها فيه ، هذه الروحانية التي كانت في الشرق وما تزال،باعثاً على الرجعية والاقطاعية والتعصبية الدينية والقبائلية، والتي كانت العائق الاول والاهم لتقدم الشرق وتحرره من استعباد الغرب له،هذه الروحانية بالذات هي التي ادعو الشباب الى مكافحتها وازالتها ، لكي لا تبقى حاجزاً بوجه المعرفة والانطلاق الفكري، وبالتالي بوجه التطور الانساني نحو الكمال .

ايها الشباب . لقد كذب الذين يقولون ان التحرر الفكري هو

كفر بالدين . ان هؤلاء لعمري هم الكافرون . فاذا اعتقد هؤلاء ان لا دين بلا رجعية وتعصب وتواكل واستسلام وضيق في الفكر والصدر ، فنحن نشفق عليهم لانهم ضالون . اما اذا كانوا يقولون بما لا يعتقدون ، دعايةً او سياسةً او تضليلا ، فالاحرى ان ننبذهم لانهم مضللون. ان رسالتكم ايها الشباب هي رسالة تحررية وتحريرية، ومن حق بلادكم عليكم ، بل من حق انفسكم عليكم ، ان تقوموا بها على الوجه الاكمل .

دعوني اقلْ لكم ايها الشباب ، انه ما من بلد في هذا الشرق اصلح لرسالتكم من لبنان ، هذا القطر العربي الرابض على امواج البحر ، يشق عبابه عندما يريد ان يشبع طموحه والمطلّ على سهول الصحراء ، يشق غبارها عندما يريد ان يصافح اخوانه ، لبنان هذا هو باب البيت العربي وواجهته ، وبوسعكم انتم يا ابناء الجيل الجديد ان تجعلوا من باب البيت ومن البيت كله معقلا للعرفان ، وموئلا للفكر الحر ، ودعامة من دعائم البيت الاكبر ، بيت الانسانية الحقيقية الشاملة .

وعساني لا اجرح احداً الا الذين لا يهمني ان اجرحهم ، عندما اقول ان البيت اللبناني بل البيت العربي ، بحاجة الى الترميم والاصلاح ، واكثر من ذلك هو بحاجة الى النفض ثم التجديد. فلا يغرنكم إشعاع يتغنون به في لبنان ، ولا امجاد عربية ينبشونها من بطون التاريخ ، يتغنون بها ولا توقظهم. مزقوا كتب التاريخ اذا شئتم ، واذا كانت هذه ستلهيكم كما ألهت من سبقكم بالتغني بماضٍ مدفون ، عن العمل في سبيل مستقبل سعيد .

الاشعاع اللبناني والامجاد العربية ، معزوفتان طالما رددهما شعراؤنا وخطباؤنا وكتابنا . ولكم أذبنا من تلافيف ادمغتنا في التغني بهما، كأننا نأبى ان نعيش الا بالذكريات ولا يعيش بالذكريات الا القانعون والخاملون . ليت المنشدين يخففون من انشادٍ بلغ حد الابتذال ليعملوا هم ، اذا كان بوسعهم ان يعملوا، والواقع ان ليس لديهم وسعٌ ولا مقدور ، او ليتركوكم انتم تعملون ، لأشعاع لا اثر فيه للتهريج ، ولامجاد يقتضيها تطور الزمن .

انا لا افهم ، واظنكم انتم مثلي لا تفهمون ، اشعاعاً يرضى عن جاهل يحكم ، وامي يشترع ، واقطاعي اذا غضب ثار القوم لغضبه وتجهمت بسببه وجوه الحاكمين . انا لا افهم واظنكم مثلي لاتفهمون اشعاعاً لا يسمح للمرأة بان يرتفع لها صوت كأنها ليست انساناً ، ويسكت عن سجون تستقبل رجال الفكر كما تستقبل المجرمين ، ويطمئن الى ديموقراطية تجيز للحاكمين باسمها ، ان يأتوا اعمالاً لا تتفق مع روح الديموقراطية ولا مع نصوصها .

انا لا افهم ، واظنكم مثلي لا تفهمون، امجاداً كلما تغنينا بها زاد صلف المتبجحين ، بانهم حملة لوائها ووارثوها والمعدّون لاستعادة ايامها وعصورها .

أنا لا افهم ، واظنكم مثلي لاتفهمون ، بيتاً يقوم على غير اساس ، وعمراناً يشاد بدون عمل ، وامجاداً يبنيها من يرون امجاد الدنيا كلها في تمجيدهم هم ، ونصراً يأتي بدون معركة ولا سلاح ، وخيراً يعمّ عن طريق الاحسان ، وامة تنتظر ان تحتل مكانة بين الامم بقرارات ومؤتمرات ، وشعباً يطمح الى العلى على حرق

البخور للآلهة واللهو بالسفاسف والاعياد. انا لا أفهم هذا ولا شيئاً من هذا ، ويقيني ايها الشبان انكم انتم ايضاً لاتفهمون .

يا ابناء الجيل الجديد .

لقد سعيت ان ادلكم على بعض علل تهدد هذه الامة التي تحبونها كما أحبها . قلت بعض العلل لا كلها ، وهي اكثر كثيراً من ان يحصيها عد ، او ان يكون في وسعي ان اعددها في هذه المحاضرة. ولقد اجملتها لكم بكلمتين هما « التواكل والاستسلام » . التواكل على من يعللونكم بوعود ما اكثرها في جعبتهم ، ويخدرونكم بعهود ينثرها عليهم الغـــير فينثرونها عليكم ، والاستسلام لقدر يعبث وحتمية تخشى المعرفة وتستخف بها ، او الاستسلام لمن يقول لكم اننا زعماء ، نعلم ما لا تعلمون ، وندرك ما لا تدركون ، نحن نعمل لكم فلماذا تتعبون .

اني واثق من ان العلاج لهذه العلل هو عندكم انتم . ولكن لاتعدّوني فضولياً اذا قلت لكم ، ان العلاج الشافي الوحيد هو في التحرر والانطلاق : تحرركم وانطلاقكم. واذ اقول التحرر ، فانما ازيد عليه التحرير ، فان تحررتم فحرروا . حرروا الجماهير العامة من عبادة الاصنام بعد ان تحطموها أمامهم . حرروها من سلاسل تحكّمها فيها الرجعية والاقطاعية والامية والتعصب. حرروها من حاجتها الى الصحة ، ومن حاجتها الى العلم ، ومن حاجتهـــا الى المحسنين . العامة بانية الامجاد ومكونة الاوطان ، تُستثمر ولا تَستثمر ،العامة هذه العناصر الشعبية، التي قال فيها عمر الفاخوري، الكاتب العربي الاكبر : « ان لبنان لن يظل بمعزل عن الحركة

العظمى التي تغمر العالم ، حركة القوى الشعبية المتصاعدة حتى تسد الافق، العامة التي لن تحقق اماني الوطن في الكرامة والاستقلال، الا متى تحققت آمالها في استقلال الشعب وجماهيره العاملة المنتجة ، وفي مراعاة كرامتها الانسانية بتوفير الاسباب لتمتعها بالحقوق كل الحقوق ، وبالحريات كل الحريات . »

ايها الشباب :

ان ثقتي بوعيكم وبقدرتكم على التحرر والانطلاق، تفعمني املاً بان عهدكم الجديد سيكون عهداً جديداً حقاً ، وسعيداً حقاً ، ومستقلاً حقاً . انكم خير من يصلح لقيادة الجماهير الشعبية المتصاعدة حتى تسد الافق ، لكي يصبح كل فردٍ من افرادها متحرراً مثلكم ومنطلقاً مثلكم. انكم لن تقودوا الجماهير كما يقودها قواد اليوم ومتزعموه . هؤلاء يخافون الجماهير ، وانتم لا تخافونها، هؤلاء يريدونها جماهير خانعة جاهلة مستسلمة ، وانتم تريدونها جماهير واعية متحررة منطلقة . ان القائد او الزعيم الذي يخاف على قيادته وزعامته من وعي الجماهير ، لا يصح ان يسمى قائداً ولا زعيماً . التحرر والانطلاق ليسا بضاعة تحتكرها حفنة من الناس تزعم باطلاً انها صاحبة الحق الالهي ، او الحق الموروث ، او الحق المنهوب، وان لها وحدها الحق بان تسود وتقود ، وتحكم وتستثمر وتتزعم . الزعامة هي زعامة العلم والفكر والعمل ، ليس غير .

لقد طفتُ كثيراً في القرى والدساكر، في العواصم والمدن، في لبنان وفي البلدان العربية، وكنت اخرج كل مرة بنتيجة واحدة، وهي ان الشعوب العربية بحاجة الى قيادة اصلح ، وتوجيه افضل .

الشعوب التي لا تزال الكثرة من عامتها تعيش من بخل الموت عليها ، الشعوب التي لا تزال عامتها تحتاج الى جمعيات البر والاحسان لتعلم لها اولادها ، وتربي لها اطفالها، وتطبب لها مرضاها ، الشعوب التي لا يزال في عامتها من يداوي المرضى بالنذور والتعاويذ ، الشعوب التي اذا تكاثرت شدائدها ومصائبها وتوالت عليها المظالم ، انتظرت ان يأتيها الفرج من السماء ، الشعوب التي لا تزال عامتها «تهوبر» للبك وترفع على اكتافها ورؤوسها الحكام والزعماء والمستنوبين ، الشعوب التي تنام على فقرها وذلها واذلالها وحاجتها الى الاستجداء والاحسان ، والتي ترضى الانقياد الى جشع الطامعين بها ، المتحكمين بمقدراتها ومصائرها ، بل المتحكمين بموتها وحياتها ، تنفيذاً لمآربهم وارضاء لمن لا غنى لهم عن رضاهم ، الشعوب هذه ايها الشبان لن تكوّن اوطاناً ، ولن تبني امة ، ولن يكون لها مجد ، مهما تفاخرت او تفاخر زعماؤها باشعاع طارف وامجاد تالدة .

الشباب حياة ايها الشبان . والحياة صراع وليست استقراراً كما يعظ وعاظ الاستقرار وبقاء القديم على قدمه . الاستقرار معناه الجمود ، معناه معالجة الحاضر بالحاضر ، معناه المحافظة على الشذوذ الى ان يلهم الله مسببي الشذوذ والمنتفعين منه تغييره او اصلاحه او تخفيف شروره . الاستقرار معناه ترقيد المظلوم لكي لا يرفع صوته بطلب الحق ، وتخدير الجائع بالاحسان ، وتخدير آلام الموجوع بالمورفين . الاستقرار في عالمنا العربي هو ان تبقى الرجعية كما هي ، وان تبقى الاقطاعية في نفوذها ، وان تبقى الطائفية اساساً للنظام ، وان تبقى القيادة بايدي الذين لا يستأهلونها ، وان

يبقى مصير هذا العالم معلقاً على جشع الذين يطمعون بثرواته وخيراته ويجرونه جراً الى مزالق خطرة تنفيذاً لخططهم فيه واشباعاً لمطامعهم منه . لقد طالما سمعتم من يسمون انفسهم فلاسفة في المعرفة يباركون الاستقرار ويعظون به . ان هؤلاء ليسوا فلاسفة بل متفلسفين مضللين . لو كانت عندهم فلسفة المعرفة لادركوا ان قيمة الانسان بتحرره ، وقيمة الحياة بانطلاقها لا بتجميدها واستقرارها . هؤلاء المدعون بانهم حفظة القيم الروحية والمعنوية ، والغيارى على الحضارات الكلاسيكية التي يحسبونها خاتمة الحضارات ، الذين ينكرون على العقل الخلاق والمعرفة قدرتها على التجديد ، هؤلاء الفلاسفة او المتفلسفون الحتميون ، لابأس ان يُستغنى عنهم — والقول لعمر فاخوري — او يُعهد اليهم بعمل آخر .

ايها الشبان !

قبل ان يتطلع مديركم الصديق الى ساعته ويرى ان نصف ساعتي قد انتهت ، وقبل ان تتخطى كلماتي حدود هذا المعهد دعوني اختم حديثي معكم ، بمصافحتكم وتهنئتكم على ما تبذلونه من القوى والجهود لشد عناصر النضال في سبيل تحرركم وانطلاقكم ، وتحرير شعوب هذا العالم العربي المحبوب . ولا يسعني الا ان اغبطكم على العهد الذي ستعيشون فيه ، والذي اثق بانكم ستجعلونه عهد تحرر وانطلاق وعهد صراع في سبيل التحرر والانطلاق . ومهما قست عليكم الظروف ، ومهما تضافرت عليكم قوى الشر ، فثقوا ان صراعاً بين الحق والباطل ، بين القديم والجديد ، بين الموت والحياة سيكون الفوز الاخير فيه للحياة .

المدرسة التي انشأها عمر فاخوري

•

استوقفني* احدهم بالأمس ، ليسألني عن المحاضرة التي سأقولها في عمر فاخوري والمكان الذي سألقيها فيه، فأجبته اني سأقول في عمر ما عرفته . وما عرفته كثير كثير ، لا تستوعبه محـــاضرة ولا محاضرتان ولا ثلاث . اما المكان الذي ستلقى فيه المحاضرة ، فهو ندوة عمر فاخوري بالذات. ثم رسمت له جغرافية المكان،وذكرت له اسماء القائمين على هذه الندوة الثقافية. فغمزني صاحبي بعينه ،غمزة كانت كافية لاقناعي بانه من الذين يخشون عـلى انفسهم من العين والعيون التي ترصد الندوة هذه، لا لسبب سوى الحذر ، او الخوف من طيف عمر . فاستصغرت هذا السائل الجبان ، وهو بالطبع ليس بين الحاضرين، كما استصغرت اكثر كثيراً اولئك المخوّفين والمتخوفين من حركة ثقافية، ليست من الطراز الذي يجددونه ، او يحدد لهم. وعلى قدر استصغاري لهؤلاء، كان استكباري للذين ينشدون العلم من كل مدرسة ليستخلصوا منها ، بمفاهيمهم لا بمفـاهيم غيرهم ، النافع وغير النافع ، او الصحيح وغير الصحيح . عجباً ، هل اصبح عمر، حتى بعد موته ، بعبعاً للتخوف والتخويف ؟ إنهـــا لعمري ناحية

* محاضرة القيت في ندوة عمر فاخوري في ذكرى وفاته الثالثة .

مروعة في القصة . ولكن ما لنا ولهذا ، فنحن في موضوعنا .

سأرجع بكم ايها السادة في هذا الحديث ، دون ان اكلفكم عناء الانتقال الى الوراء ، الى حقبة من التاريخ مضت ، تبدل منها – لحسن الحظ – شيء ولم تتبدل – لسوء الحظ – اشياء، لاروي لكم ، باختصار ، كيف جمعتني الصدفة بعمر الفاخوري ، و كيف كانت فاتحة معرفتي به ، ثم كيف انقلبت هذه الصدفة التي تفوق الميعاد الف بركة الى غبطة كانت تستحوذ على مشاعري كلما اجتمعت به ، او تحدثت اليه ، أو سمعته من منبر ، او من محطة الاذاعة، او قرأته في الصحف او في هذه الثروة الادبية التي تركها لنا بعد ان سلخه عنا الموت، فقبّح الموت ما اظلمه ! .

الزمان : العام العشرون بعد الألف وتسعمائة .

المكان : دار في شارع الفرنيني في بيروت ، كانت تسكنها اديبة كبيرة ، كان اسمها ماري يني ، فتحول مع مرور الزمن ، الى ماري يني عطا الله ، جابت باسمها الجديد اقطاراً بعيدة من اقطاز المعمورة ، حيث كانت تنقل معها نموذجاً من الادب اللبناني والعربي ، الرفيع الرفيع .

الزائرون نخبة من الادباء ، يحومون حول صاحبة الدار ، وينثرون نفثات من الادب والشعر والفلسفة . فيعبق جو الدار برائحة بخورية ، اين منها رائحة البخور المحروق في هياكل العبادة، او التعبد ، او الاستعباد .

عرفتني سيدة الدار بالزائرين واحداً واحداً . حتى اذا مررنا بزاوية من زوايا الغرفة قالت « وهذا عمر الفاخوري » فاذا بي امام

بشريّ في هيكل، تنفر من تقاسيمه نتآت، يحاول العظم فيها ان يشقّ غطاءه الجلدي، ووجه فولتيري يخفي وراء تقاطيعه مسحة من جمال النفس، في هزال من البشرة، وعينين يشع منهما نور، اخفاه عمر وراء نظارتين كبيرتين، ليحبس شرراً يتطاير منهما، فلم تقو النظارتان على منع شعاع يخترق الجدارين الحابسين، لينفذ الى صميمك وانت تتحدث اليه، فيلهب فيك شعلة من قبسه، كلما أحسست بها زادك هذا الاحساس شغفاً به وتقرباً اليه.

كان ذلك الاجتماع اول معرفتي بعمر الفاخوري. غير ان عمر ليس من الذين يعرّفونك الى انفسهم من اول مرة فقد كان بخيلاً في حديثه، حريصاً على ما يخرج من لسانه، يستطلع من كل كلمة يسمعها، ومن كل وجه يراه، ومن كل حركة تبدر من الذين يجتمعون معه، او يجتمعون اليه، او يمر بهم، او يمرون به، ما يساعده على تفهم الناس، وادراك مقاييسهم وقيمهم الفكرية والادبية والانسانية، لايعنى بالظواهر على قدر ما يعنى بالدخائل، يكره الدجل والنفاق في الاحاديث، ليدخل الى صميم الحقيقة، لأنه من عشاق الحقيقة التي يصفها «بانها ليست مرة، كما يشيع المرجفون، وليست ايضاً حلوة، انما هي ذات طعم خاص، هو طعم الحقيقة».

وتمر الايام، فاذا بالصدفة ايضاً تقودني الى الدوائر العقارية، فارى عمر قابعاً في احدى زواياها، يسجل بختمه وامضائه معاملات البيع والشراء، وهو ليس من البائعين ولا الشارين. شاهدٌ من شهود الاخذ والعطاء، يرى عن بعد، كيف تروح الثروات وتجيء، فيفتر ثغره عن بسمة ساخرة ما كان احلاها على وجه عمر، لان

دنياه غريبة عن المساومة بعيدة عن البيع والشراء .

سئم عمر كرسيه في الدوائر العقارية ، كما سئم من قبلها مهنة المحاماة ، التي زاولها مدة قصيرة ، على طريقة لا ترضي الناس ، ولا تجتذب الزبائن ، طريقة قال فيها : « كنت ازاول المحاماة على طريقة خاصة.. اعني اتمرس بها كتمرّس ابي الطيب المتنبي بالآفات ، لا المحاماة تنقاد اليّ صاغرة ، ولا انا ابشّ لها متزلفاً . فكنت ادعو الله ، سراً وعلانية ، ان يصرفها عني بالتي هي احسن ، كي لا يكون من ذلك عليّ حجة ، ولا سيما عند الذين لا شأن لهم معي.» ويعني بهم عمر الفضوليين ، الذين يشغلهم ما لا يعنيهم اكثر مما يشغلهم ما يعنيهم ، وهم كثير في هذه البلاد . ولقد صرفها الله عنه بالتي هي احسن ، ليستقر عمر في المركز الملائم لطبيعته ، لعبقريته الادبية والفكرية ، لنهجه الانساني ، لبيئته ، لحقيقته .

وهكذا طلق عمر المحاماة والوظيفة ، لينشيء مدرسة في الأدب والتحرر الفكري . وادبُ عمر مدرسة ، يتعرف فيها الطالب الى الأدب الواقعي ، المستلهم من صميم الحياة العملية من نواحيها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، والمعاشية ، فالأدب كما يقول عمر « مثل سائر الفنون الجميلة ، ظاهرة اجتماعية اصلاً ، ووظيفة اجتماعية فعلاً » . وهو ينعى على الاديب العربي انه « اذا خرج الى السوق ، فهو يمضي في حاجاته المعاشية ، وقلما يذهب في حاجة ادبه» كأنه يقول للأديب ان ينزل الى السوق ليستخرج ادبه من الحانوتي الذي يبيعه البندوره ، ومن العتال الذي يحمل له بضاعته ، ومن السائق المتمرد على قانون السير ، لانه يطبق عليه ولا يطبق على

سائق سيارة النائب او الوزير ، ومن بائع الصحف ، الذي يغريك بالأكاذيب المنشورة فيها ليبيعك نشرة بخمسة عشر غرشاً ، ومن الحاجب الذي يحرس باب الموظف لكي يمنعك من الوصول اليه لأنه مشغول بشرب القهوة ، او « طق الحنك » مع محاسيبه ، او مع من هو من محاسيبهم ، وهلم جراً . فهو يطالب الأديب بان يخرج الى السوق ، فينظر ويعرف ، ويعقل ويشعر ، وينفعل ويتحمس ، فيدخل هذ العناصر كلها في مادة ادبه ، بدلا من اعتزاله في برج عاجي، في تفرد حصين، لا اذن تسمع، ولا عين تدمع، مدعياً انه صاحب رسالة وحسب لا يتنازل عنها ، رسالة يتخذها حلة مبهرجة للتبجح وستر الفاقة. فيثور عليه عمر ثورة لاذعة حقاً في نداء يخرج من اعماق قلبه ويقول : « حبذا لو ان هؤلاء «الرسل» يُقلون من التبجح برسالتهم اقل كثيراً ، ويكثرون من اداء وظائفهم، اكثر قليلاً . »

وهذا القول هو الفرق بين واقعية الأدب في مدرسة عمر وبين افلاطونيته او عذريته ، عند اكثر الادباء . هذا يعطي المستعذب والمفهوم والنافع. واولئك يعطون ما يستعصي فهمه وهضمه وتحليله شأن ذلك الطبيب الذي يمرر الدواء لمريضه ، عمداً وقصداً ، لكي يوهمه ان مرارة الدواء هي التي تقضي على العلة وتشفي الداء ، فلا يلبث مريضه ان يكفر بالطب ، ويثور على الاطباء .

كنت اتحدث مرة الى شيخ من شيوخ الأدب في لبنان سماه ابواه « مارونا » فثأر لنفسه منها ، وسمى ابنه « محمداً » نكاية بالبسطة والجميزة [1] وبشفيعيهما . وابو محمد مارون عبود هذا ، من

(١) البسطة حي في بيروت سكانه مسلمون والجميزة حي سكانه مسيحيون .

اساتذة الأدب الواقعي . فعندما جئنا في حديثنا على ذكر احد الأدباء ، الطامح الى اقتناص لقب « فيلسوف » ليزيده على لقب الاديب ، قال لي « فلان اقرأه فلا افهمه . يكتب مقالاً ، عرضه اكبر من طوله ، عن حديث له مع الزهرة او الليمونة ، يراود الفلسفة عن طريق التفلسف والغموض والابهام . فما قيمة هذا النوع من الادب ؟ وما الفائدة العملية من اشتغال الادباء به والانصراف اليه ؟ »

الزهرة يا سادة ، لم تشغل ادب عمر بمقدار ما شغلته الارض التي تنبت فيها الزهرة ، والليمونة لم تراود ادب عمر بمقدار ما راوده الزارع الذي يزرعها ، والفلاح الذي يعتني بها او العامل الذي يكدح في انتاجها . ادب ملموس ومحسوس ، لا يذوب كما تذوب فقاقيع الصابون . لان ادبه « شيء » وأدب اولئك الذين عناهم «ابو محمد مارون عبود » «لا شيء» او على الاقل ،« قريب من اللاشيء ».

وقد حمل عمر على حرمان السياسة من الأدب ، او حرمان الأدب من السياسة . فهو يسخر من الذين يقولون بابتعاد هذا عن تلك ، بل يتهمهم بسوء القصد والنية، عندما يغرون الاديب بمعسول الكلام ، ليزينوا له الحياة في عالم الخيال يتلهى في اوهامه ، تاركاً لهم وحدهم حرية التمرس بالسياسة وتوجيه الجمهرة من الناس . التي ما اصيبت بالرزايا ، اكثر مما اصيبت في البلدان التي انزوى فيها ادباؤها في ابراجهم العاجية. اولئك الادباء الذين يخيل اليهم جبنهم ، او يصور لهم الذين يخافونهم ، انهم « حفظة » القيم الانسانية ، وخالقو المثل العليا ، لا ينبغي ان يسفوا او يتبذلوا او يتعرضوا

لما لا يعنيهم . كأن يعترف اولئك ان السياسة تبذل واسفاف . نعم هي كذلك ما دامت موقوفة على المحترفين، الغائصين في سياسة المخاتير والنواطير وما على شاكلتها . ولكنها ليست كذلك بنظر السياسي الاديب الذي ينزل الى السوق، فيتعرف، ويعقل، ويشعر، وينفعل ، ويتحمس ثم يرسل صيحة ، او يصعد زفرة ، ويلهب امة، ليزيل عن اعينها غشاء يضعه عليها محترفو السياسة ومستغلوها .

لهـذا النوع من السياسة ، السياسة العالية ، النظيفة ، المناضلة المنزهة عن الاسفاف والابتذال كرس عمر الفاخوري ادبه وانشأ مدرسته . اما اذا اردتم ان تعرفوا ؛ انجح عمر في ادبه ذاك ؛ ام لم ينجح ؛ فاليكم الجواب :

اذا قيس نجاح المرء بالمال الذي تجمع لديه ليحوله بعده الى من يسيء به الى الناس ، او اذا قيس بالمركز الوظائفي الذي احتله ، او حشر فيه ، او بالوجاهة التي اتفق المجتمع الراهن عـلى تسميتها كذلك ، فبوسعنا الحـكم على ان عمر ليس فقط لم ينجح ، انما كان فشله ذريعاً وكاملاً . فقد رشح عمر للنيابة مرتين وسقط ،لان للنيابة، ولا سيما في هذه البلاد ، شروطاً لم يأبه لها ، ولم تكن مريئة عـلى قلبه . ثم لوح له مرة بمفوضية في الخارج ، فحالت دونه ، او حالت دونها ، اعتبارات نمسك عن ذكرها ، حفاظاً على عهد قطعته عـلى نفسها هذه الندوة عند تأسيسها . كذلك لم تكن لعمر تلك الهيبة « المحجلة » عند الخاصة ــ الخاصة التي اعني وتعنون ــ لان هذه الفئة، على احترامها « الضمني » لمن كان كعمر، تحتفظ بتهيبها للذين يملأون الاجواء قرقعة من طبول فارغة ، وما كان عمر قارع طبل ، بـل

حامل قيثارة ، ما ان يحرك هو اوتارها،حتى تتحرك اوتار القلوب، وتصعد زفرات محبوسة في صدور مكبوتة ، يود اولئك – الذين نعنيهم – ان تبقى الزفرات خافتة ، من صدور مقفلة،ذليلة ، ميتة.

ولكن تعالوا ايها السادة لنقلب صفحة «من» الى صفحة «الى» . تعالوا نستعرض ما اعطاه عمر للمجتمع ؛ ومـــا تركه من ثروات ضخمة للفكر اللبناني والفكر العربي ، ثروات عجز الذين وسوس لهم شيطانهم بالحجز عليها [1] في يوم من الايام ؛ ليمنعوا الناس من الارتواء بها ؛ ثروة ليست كالثروات الـــتي يقفل عليها في الخزائن والصناديق الحديدية ؛ اذاً من العبث ان نضرب حولهـا السلاسل والقيود ، لانها نزوة في كل فكر ، وشرارة في كل صدر .

لم يشأ عمر ، ان تكون مدرسته ذات سقف واربعة حيطان ، فاوغلها في كل بيت ، وفي كل حانوت ، وفي كل مصنع ، اوغلها في الطريق ، وفي سفوح الجبال،اوغلها في صفوف العامة وجماهيرها، هذه العامة التي تتطلع اليها الخاصة ، والكلام لعمر «بشيء من الذعر وكثير من الدهشة فلا يلبث الذعر حتى يغطي على الدهشة . »

هنا يتجلى لك النجاح الذي احرزه عمر ؛ والذي يضؤل امامه الفشل الذي اصابه في السياسة،وفي الوظيفة،وفي الكسب والرفاهية.

لقد عرف السياسة عمر ، وعرفها الى الناس ، بانهـــا اوسع كثيراً، وابعد مدى من وزارة او نيابة، او وظيفة . انها بنظره، ونظر الذين يحسنون فهمها،علم متصل بالكون وبحياة امه وشعوبه، لا يتقلص ضمن حدود ضيقة ، او قوميـات متباغضة متعصبة ، ولا

(١) اشارة الى حجز الحكومة لمكتبة عمر وختمها بالشمع الاحمر .

ينعزل عن الحركة العظمى التي تدفع الامم والشعوب الى احتذاء اساليب جديدة في الفكر، وصيغ مستحدثة في الحياة».

لقد كان عمر لبنانياً، اكثر كثيراً من الذين يتقارعون على الشكل والظاهر. وكان عربياً، اكثر كثيراً من الذين ينادون ويفاخرون في مناسبة وغير مناسبة، بعروبتهم. وكان شرقياً يأبى ان يحجز على نفسه في نطاق شرقية متعصبة، ويحول نظره عن كل ما يأتي به الغرب، لانه لم يكن يرى، لا في اللغة، ولا في العروبة، ولا في الشرقية، ما يمنع من التفكير دولياً، وعالمياً، وانسانياً. ومن هذا الباب الواسع، وبهذا التفكير الرحب، اشتغل عمر بالسياسة الوطنية اللبنانية، على اعتقاد راسخ ان انكماش القوم، اي قوم، وانعزال الاوطان، اصبح في هذه الازمان وهماً من الاوهام وخطراً ما بعده خطر. وعندما اسس عمر عصبة مكافحة النازية والفاشستية، كان يقول: «نحن في صف الامم المتحدة اقرب الى لبنان، والى العروبة، والى الشرق. فليس بوسع لبنان، ولا اي بلد آخر، ان يخرج من الدنيا».

انا لم اقرأ — على كثرة ما قرأت — وصفاً للبنان كالوصف الذي اتى به عمر في كتابه «الحقيقة اللبنانية» قال رحمه الله:

«لبنان، منذ كان، لم يقف على ساحل هذا الابيض المتوسط، بازاء مدنياته القديمة والحديثة، كما يقف الصياد الذي دهمته العتمة ولم يعطه البحر سمكة واحدة.. لا! لكنها قصة شعب من الشعوب، ما كان صغر جغرافيته وتاريخه ليعوقه او يكفه او يمنعه عن ان يعطي العالم، في عصر من عصور تمدنه اداة التخاطب المثلى،

واساليب العبادة الفضلى ، وطرائق للفكر والعمل قويمة . بل لعل صغره في رقعة الارض ، وفي زحمة التاريخ ، كان حافزاً ذلك الشعب ، دافعاً اياه بعزم لا يغلب ، الى الاخذ بضرب من ضروب العظمة او السمو او التوسع ، يكفي به طموح ذاته ، ويسد عوزها .

هذا اللبنان الذي يتبسط سفناً ومدناً ، ويتسامى آلهة وهياكل ، ويتوسع بالحرف والفكر ، من غاباته المقدسة كان يشيد معابده الذاهبة صعداً ، ويبني مواكبه الذاهبة بعيداً . كأن له في ضيق مساحته ، وصغر حجمه ، عند المسافة ثأراً . فلن يقر له قرار حتى يدرك ثأره ، مقرباً الابعاد ، جامعاً الاضداد ، واصلا قطيعة المادة والروح على السواء . هذا اللبنان ملتقى السبل المتفرقة ، ومعترك الامم المتنافسة ، ومزدحم الثقافات المتقاطعة ، ما من قوة في الارض تستطيع ان تغلق ساحله الغربي ، هذا الباب المفتوح على مصراعيه للابيض المتوسط ، من مدنيات وشعوب ، يعطيها ويأخذ منها ، ثم يقذف بها واحة غريقة في الصحراء . كذلك ما من قوة في الارض تستطيع ان تسلخه عن هـــذا الشرق السامي الذي وصلته به ، منذ كان التاريخ ، بل قبل ان يكون ، وشائج دم ولغـــة ، وتقاليد واساطير ، وعبادات وثقافات ، ثم يقذف به ، جزيرةً عائمة في الاقيانوس . سيظل لبنـــان حيث هو ، وحيث كان ، من الطبيعة والتاريخ ، همزة وصل بين الشرق والغرب اللذين يلتقيان فيه ، وان صح ان ثمة مستقبلاً ، قريباً او بعيـــداً ، ليس يعرف الاثرة القومية ، وما يلازمها من مظاهر الطمع والفتح والغصبة ، ولا التحريم الفكري ، وما ينشأ عنه من تعصب على اختلاف انواعه ،

فقد كانت اذاً ثقافة لبنان هي المثلى ورسالته في الدنيا هي الفضلى: ثقافة تمازج ، ورسالة تواصل » .

الا دلوني ايها السادة على كاتب او خطيب عرّف لبنان احسن من هذا التعريف ، او مثل هذا التعريف، لأضع على صدره وشاح الارز اللبناني الاكبر ، ولو اضطررت الى سرقته من مخزونه.

قال لي احدهم يوماً ، ومحدثي من الذين يضعون على اعينهم غمامة كغمامة حصان العجلة ، بحيث لا يستطيع النظر الا لجهة واحدة ، إن عمر الفاخوري مسلم، ومن العسير ان يستطيع مسلم قيادة جبهة موحدة في هذه البلاد ، بسبب التنازع الطائفي . وقد ذهب محدثي الى القول ان اي مسيحي ايضاً يقصر عن القيام بنفس العمل. وهنا ألفت انتباهكم الى ان محدثي كان مسيحياً ، فأردف جملته الاخيرة استدراكاً لما قد اجيبه ، وتبرّءاً مما ليس هو براء منه .

ضحكت من قول محدثي ، فكانت ضحكتي وحدها سبباً « لافرنقاعه » دون ان ينتظر الجواب . وحسناً فعل لانه وفر عليّ جدلا ، قد يؤذيني ويؤذيه ، ولا يستسيغه عقله الجامد .

عمر فاخوري مسلم ، وجورج حنا مثلاً مسيحي . فهل يضير الاول كونه مسلماً ، او هل يضير الثاني كونه مسيحياً . المسيحية والاسلام عقيدتان اجتماعيتان في الاصل والجوهر ، روحانيتان في الظاهر ، تتلاقى فيهما القيم الخلقية والانسانية ، قيم ما عابها شيء ، اكثر مما عابها تفلسف بعض الذين قالوا فصدّقوا وصُدّقوا ، انهم حكماء ، اولئك الذين قال فيهم عمر « انه يصحّ ان تستغني عنهم البشرية ، او يُعهد اليهم بعمل آخر ! »

لم يكن لعمر يد في تسميته عمر ، كما لم يكن للآخر يد في تسميته جرجس . انها الحكمة التي هبطت على اولئك « الحكماء » فارادوا ان يفرقوا ، حتى في الظاهر، بين الأخوين ، ليدمغوا كلا منهما بعلامة فارقة ، وليقسموا الامة الى طوائف واديان ، فتقوم بينها حدود فاصلة ، تحتاج فيما تحتاج ، الى جوازات سفر بينها . ألستم اذاً موافقين ايها السادة على قول عمر انه يصح ان تستغني البشرية عن اولئك الحكماء ؟ او يعهد اليهم بعمل آخر ؟ اما كيف ومتى يصبح الاستغناء عنهم امراً ميسوراً ، فاليكم ما يجيب عليه اديبنا الاكبر : « نحن على يقين من ان نظاماً سياسياً ديموقراطياً صحيحاً كفيل بان يمحو تلك الحدود الوهمية ، المخجلة ، والمؤذية ، ككثير من الاوهام ، ولا خسارة في ذلك على احد ؛ اللهم الا على نفر من المستثمرين الكسالى ، واظن ان هؤلاء ليس يهمنا شأنهم . » نعم ايها السادة ؛ إنا على اكثر من اليقين ان اولئك الحكماء ، والذين يأخذون بحكمتهم الزائفة النجسة ، هم الذين عناهم عمر والذين لا يهمنا شأنهم .

كان عمر ينظر الى المجتمع والى الحياة نظرة انسانية واسعة ، ما خانها مرة في اية ناحية من نواحي نضاله . كانت رفيقته اذا كتب ، وموضوعه اذا خطب ، وظله اذا مشى في الطريق ، ومثله الاعلى في كل عمل يقوم به . مهمة شاقة، في عالم قائم على الذاتية والمصلحة والبغض والحسد والغرور . مهمة اضطلع بها هذا الرجل ، الرجل الذي بخلت عليه الدنيا حتى بالصحة ، فهزأ بالمرض ، ولم ينحن امام الاوجاع ، فلم يلبث ان سقط في الصراع ، شهيداً من شهداء التحرر

الفكري والحرية الصحيحة والديموقراطية الحقة .

قاوم النازية والفاشستية لانه رأى فيهما انتقاصاً في القيم الانسانية، وانتصر للديموقراطية ، لانه رأى فيها تمجيداً للحرية الحقيقية الواعية، وتحزب ، بل تعصب « للعامة » بعد ان رأى من « الخاصة» اندفاعاً وراء الشهوات ؛ لا يهمها من امر العامة ، وما يلابسها من حالات، وما يتصل بها من شؤون - اقلها الشؤون المعاشية - لا يهمها من امر العامة الا اشباع الشهوات - شهواتها بالطبع - دونما نظر الى ما تمثله هذه العامة في ميادين الحياة . فقد هال عمر ألا تكون للعامة شركة في الحياة العامة ، مع ان كلمتي « العامة » و « العام » ، على حد قوله ، لا تدلان في الاصل اللغوي ، عـــلى معنى من معاني الامتهان او الازدراء او الهجو ، التي اضافها اليها « الخاصة » ، او « الخاص » ، بل بالضد .

جلس عمر عصر ذات يوم الى « تزكة » في بيت احد اصدقائه الادباء . وعمر يتذوق الخمرة دون ان يطلق لهـــا العنان للتحكم به . والخمرة يا سادة محببة الى قلوب الشعراء والأدباء . يستوحونها احياناً - اكثر الاحيان - فتسرع الى تلبيتهم ،واستنهاض شيطان شعرهم وادبهم ، وازالة المحاصيل البخسة في محصولاتهم . وكان بين الحضور شاعر شاب ، لا تتفق عذوبة شعره مع « ارستوقراطية » اسمه وعائلته فما ان رآه عمر ، وقد كان قرأ له ابياتاً اعجب بهـا ، حتى قال له : « هات يا اخي يدك لاهنئك مرتين . مرة على شعرك العذب ، ومرة لكونك من عائلة لا تعنى لا هي ولا مثيلاتها بمانعنى به نحن « العوام » خشية ان تمس ارستوقراطيتها « باسفافنا » . الا

بارك الله فيك . فانت سفيرنا في عالم الارستوقراطية هذه ؛ او على لغة اليوم ؛ انت « طابورنا الخامس » فيها . »

العامة ، الفقير ، الفلاح ، العامل ، اليتيم ، القروي ، وكذلك ايضاً الاديب الكاتب ، كلمات يمتهنها قاموسنا الاجتماعي الراهن ، فتأتي على السنة « زمرة » مغرورة من البشر ، مرفقة بضحكة ساخرة ، فيغضب لها عمر ، وهو الساخر رقم « ١ » ويضعها في خطبه وكتاباته في المحل اللائق بها في قاموسه الاجتماعي الامثل ، فتستقر السخرية حيث يجب ان تستقر . كلمات تعني اكثر كثيراً مما تفهمه ، أو تتفهمه او تدركه هذه الزمرة . العامة بانية الامجاد ، ومغذية الاوطان ، تكدح فتنتج ، وتزهر فتثمر ، تُستثمَر ولا تستثمِر فيتجاهلها « رجال الزمرة » لانهم يتجاهلون ان الوطن الحقيقي « قد يتعدى حدود ذواتهم . فيقيمون بينهم وبين السواد الاعظم من الناس سداً كسدّ الصين ». في ظنهم وفي مرغوبهم ان يبقى هذا السد قائماً الى الابد . وفي عرفنا ، ومرغوبنا ، وايماننا ، انه سينهار حتماً بعد حين ، ولا بد من ان يحين هذا الحين .

الدنيا ايها السادة ، قائمة قاعدة ، والعالم يحتدم بصراع حادّ . قد يقول البعض انه صراع بين فكرتين سياسيتين او اقتصاديتين ، أو بين فلسفتين اجتماعيتين . ولكن لا . وقد يقول البعض الآخر إنه صراع بين جبهتين دوليتين . ولكن لا ! وقد يظن انه صراع بين شكلين من اشكال الديموقراطية التي يخلع عليها مستغلوها كل يوم لباساً جديداً ، ولكن ايضاً لا . ويلقي المثاليون دلوهم بين الدلاء فيقولون هو صراع بين المادة والروح . وهؤلاء هم الذين

يطمعون في المادة ، بينما يقيمون من انفسهم حراساً على الروح . ويتفنن ابطال هذا الصراع في تعليل اسبابه ومسبباتـــه ، اخفاء للحقيقة ، التي لايخفيها تمويه ولا تضليل . اما الصراع فقائم حقاً ، وحادّ حقاً ، ولكنه صراع بين الكثرة والقلّة ، بين « الخاصة » المتغطرسة المنكمشة ، وبين « العامة » وجماهيرهـا المتقدمة حتى « تسد الافق » ، بين المجوّع والجائع ، بين المستعبِد والمستعبَد ، بين الكائن الواقع وبين ما يجب ان يكون ، ولا مفر من ان يكون ، لأن الواقع باطل ، وما يجب ان يكون حق . وقديماً قيل « أما الباطل فالى ساعة ، واما الحق فالى قيام الساعة » .

ثم تعالوا ايهـــا السادة ، نتتبع انسانية عمر ، في حدودها وتفاصيلها ، وفي نظرته الى « الانسانيين المعلومين » . اولئك الذين يموهون عـلى الناس بان الانسانية رفق واحسان ، وان الاحسان مروءة ، فيقومون في كل مناسبة ، وما اكثر المناسبات ، بحملات استعطائية ، ليطعموا جائعـــاً ، او يعالجوا مريضاً ، او يكسوا عرياناً ، فتشيد بانسانيتهم المجالس والصحف ، وتعلق على صدورهم الاوسمة . هؤلاء الذي يتجاهلون ان الانسانية عـدل ، وليست احساناً ، هؤلاء الذين يقولون لنا ضاربين صفحاً عن مبدأ العـدل الصرف ، وعن مبدأ الخير الصرف ، وعن ذلك المزيج الكيمي من كلا المبدأين ... يقولون لنا ، متصوفين ، ما لكم وللمشاكل الاجتماعية ، ولحلولها التي لاتحل مشكـلًا ؟ احبوا الفقير واليتيم ، والسائل والمحروم ، احبوا هؤلاء جميعاً في ذات الله . فالله وحـده يجب ان تحبوه . هؤلاء المتصوفة لا بأس بان نرفعهم هم ايضـاً الى

مصاف اولئك الحكماء والفلاسفة الذين يصح أن تستغني عنهم البشرية ، او يُعهد اليهم بعمل آخر. » أما حل المشكلة حلاً حقيقياً فانك تجده في خطاب له في حفلة اقيمت لليتيم العربي ، او بالاحرى على حساب اليتيم العربي ، جاء فيها : « ان التوكل على مروءة اهل الخير والمعروف لم يقدم النوع الانساني كثيراً نحو الكمال الذي ننشده او نسير نحوه ، بل ان قانوناً واحداً ، يسن وينفذ ، لأفضل من كل الخطب والمواعظ ، والشروح والحلول ، التي ينوء الضمير الانساني بعبئها الثقيل ، منذ قام في الدنيا اول حكيم ، او اول واعظ ، او اول داع للخير ، قانون العدل الانساني ، والمدنية الفاضلة ، حيث لا يتيم . »

هذا ايها السادة سر نجاح عمر الفاخوري، تفهّمه للعامة ،وتفهيمه الناس ماهيتها واهميتها ، نجاح بلغ الذروة ، فذعرت منه «الخاصة» فسعت بما لديها من قوة وسلطان وبطش ، الى التقليل من شأنه ، برشق حجارتها على مدرسته ، غير عالمة ان حجارتها لا تؤثر في هذا البنيان الصامد الذي لم يبنه عمر من زجاج .

ايها السادة ، في حمأة الوغى ، وفي عنفوان النضال ، وفي اكثر الاوقات حاجة الى عمر ، سقط هذا القائد الفكري الكبير صريعاً بيد القدر الغاشم ، كأن القدر والطغيان ، ضربا له موعداً في تلك اللحظة الرهيبة ، التي انطفأت معها شعلة الحياة في هيكله الزائل ، لتطلق جذوة خالدة ، لا تفنى ولا تموت ، وقديماً قال « الحكماء الحقيقيون » : « لولا الموت لما كانت الحياة » .

واليوم اذ تعود بي الذكرى الى ثلاث سنوات مضت ، واذ

يمر في مخيلتي ذلك المشهد الوقور : جثمان عمر مرفوع على اكتاف تلامذته ومحبيه ، وشبان عرفتهم يسخرون بالشدائد ، واجمون امام النعش المرفوع ، وزفرات اسمعها من وراء الايام ، اسائل نفسي ما اذا كان صحيحاً ان الناس متساوون امام الموت. لا ايها السادة ، ان الفرق لشاسع بين الموت والميت، بين جسد يبلى وبين حياة تخلد. هوذا سفر من اسفار الحياة، فيه عبر، وفيه عظات ، وفيه دروس، عن قيم الانسان في هذا الهيكل الزائل .

لقد دعوتموني ايها السادة لالقي عليكم محاضرة في عمر الفاخوري. فاذا بي القي عليكم محاضرة من عمر، ومن اقوال عمر ، ومن حكم عمر ، ولكن ما عابني هذا ، ولا ضركم ، ألم أقل في سياق هذا الحديث ان « عمر الفاخوري » مدرسة ؟

للمؤلف

•

العقم والسلالة الجنسية		١٩٣٦
من الاحتلال الى الاستقلال	(الطبعة الثانية)	١٩٤٤
انا عائد من موسكو		١٩٤٧
طريق الخلاص	(نفد)	١٩٤٨
المرأة جسد وروح		١٩٤٩
رحلة في عالم جديد		١٩٥٠
قصة الانسان		١٩٥١
كهان الهيكل (قصة)		١٩٥٢
ضجة في صف الفلسفة	(الطبعة الثانية)	١٩٥٢

وهي تطلب كلها من

دار العلم للملايين
بيروت

فهرست

	صفحة
توطئـــة	٣
قيمة الانسان الشخصية والمجتمعية	٨
بين الديالكتيك الهيغلي الميتافيزي	
والديالكتيك الماركسي العلمي	٢٨
الى الذين يعيبون على الماركسية ثوريتها	٣٢
حقيقة الاشتراكية	٤١
مشكلة الحرية	٥٧
ملحق — حديث مع قافلة الشباب	٦٤
المدرسة التي انشأها عمر فاخوري	٧٨

٥٢/٥/١٥٥

مطابع دار الكشاف - بيروت

DATE DUE

JAFET LIB.
30 JUN 2004
Circulation Dept. 2
JAFET LIB.
14 APR 2008
Circulation Dept. 3
7 FEB 2011
Circulation Dept. 4

335.4:H24dA:c.1
حنا، جورج
ضجة في صف الفلسفة...
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01020117

American University of Beirut

335.4
H24dA

General Library

335.4
H24dA
c.1